AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01025 1365

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

03-B2275 Put

BJ
1588
.A7
M8

فن الحب والحياة

بقلم

سلامة موسى

كتاب اليوم

ص ١٥٧ قطع

مقدمة

كتبت هذا الكتاب فى ضوء اختباراتى للوسط المصرى وقد عالجت موضوعه من جملة وجهات فلسفية وسيكلوجية واجتماعية

ونحن نعيش فى حضارتنا القائمة عيشا « مكيفا » بعادات المجتمع موجها الى أهدافه مدربا على أساليبه . ولذلك ننساق انسياقا كأننا ذاهلون لا نقف ولا نسائل عن القيم البشرية فى هذه العادات والاهداف والاساليب .

وليس شك أن غاية الحياة أن نحيا الحياة على مستواها السامى ومعنى هذا الكلام هو أن نعيش بما لدينا من كفاءات بشرية تسمو على كفاءات الحيوان . أى يجب أن نعيش بالتعقل وليس بالغريزة والعاطفة . وفن الحياة هو ، فى النهاية ، الارتفاع بكفاءاتنا الموروثة الى ما كسبناه واقتنيناه من التراث الاجتماعى الثقافى .

ولكن هذا التراث الاجتماعى الثقافى يجب ألا يسوقنا وألا يضلنا عن القيم الاصلية فى الحياة . وقد التفت فى الفصول التالية الى ثلاثة أو أربعة أشياء لكل منها مكانة مركزية فى البحث عن فن الحياة .

التفت أولا الى أن النجاح يجب أن يكون كليا فى الحياة وليس فى الحرفة أو الزواج أو الكسب أو المجتمع . فان كلمة النجاح فى مجتمعنا الاقتنائى كثيرا ما يشتبه معناها بمعنى الاثراء . ولكن الناجح الصادق هو الذى يجعل نجاحه كليا شاملا متوافيا لنشاط حياته كلها .

والتفت ثانيا الى أن المجتمع الذى نعيش فيه كثيرا ما يضلل بنا ويبعدنا عن القيم البشرية . بل هو أحيانا يسخرنا فى أهدافه التى قد تناقض ما ننشد من رقى أو سعادة . فهو منا بمثابة المدينة التى تكتنفنا بمساكنها وأضوائها الصناعية وضوضائها واهتماماتها الزائفة فنعيش فيها ونكاد ننسى أنه على مسافة ثلاثة أميال منا

مقدمة

ينهض الريف فى طبيعته النضرة وأشجاره ومياهه وحيوانه . بل ننسى أن فى السماء نجوما وكواكب . وقد نألف عادات هذا المجتمع فلا نجد النشاط الى تغييرها ولا ننهض الى الخروج الى هذا الريف القريب . وكذلك الشأن فى تلك القيم الاجتماعية وأثرها فى نفوسنا حين نعيش فى أسر هذه القيم الزائفة طيلة حياتنا

وقد احتجت الى أن أوضح أن السعادة كما ينشدها الجمهور انما هى فى أغلب الاحيان ذهول وتبلد أو استرسال فى العواطف الحيوانية التى تحركها غرائزنا السفلى . وان هذه السعادة ليست جديرة بانسان راق يرتفع الى أن يجعل من حياته فنا . وعندى أن التعقل هو صميم السعادة . وأنه مهما فدحت الكوارث فان التعقل يواجهها فى شجاعة وتحد وفهم

كذلك التفت الى قيمة الثقافة من حيث أنها تكفل لنا توسعا ذهنيا ينتهى الى أن يكون توسعا حيويا . لانها ، أى الثقافة ، تزيد اهتماماتنا وتعودنا عادات ايجابية عندما نصل الى الشيخوخة . وعنيت مع شىء من الاسهاب بقيمة الحب فى مجتمعنا وفى السعادة الزوجية . كما انى أسهبت فى بحث عاداتنا وكلماتنا الجنسية وما لذلك من أثر فى سعادتنا العائلية

وكان يمكن أن أسمى هذا الكتاب «الحياة السعيدة» لولا أن كلمة السعادة قد ابتذلت فى معان سفلية . كما أن هناك التباسات واشتباهات كثيرة عن حقيقة معناها . وقد احتجت الى التنبيه عن ذلك . ولكن فى عبارة « فن الحب والحياة » ما يرفع القارىء عن مبتذلات كلمة « السعادة ».

وأرجو أن يكون فى الفصول التالية توجيه لقرائها من الشباب والكهول .

سلامه موسى

فن الحياة

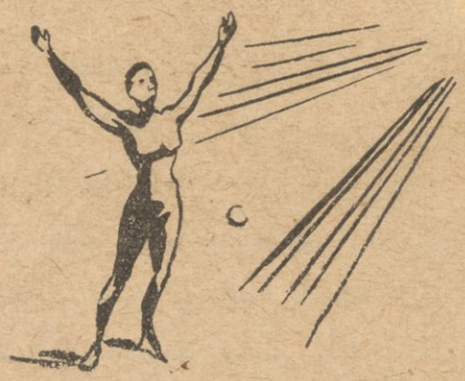

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

يعيش الحيوان على المستوى الفطرى : يأكل ويشرب ويتناسل ولكننا نحن البشر نعيش على المستوى المدنى الفنى الثقافى . وقد لايصدق هذا على جميع البشر ، أو بتعبير أصح ، قد لايصدق هذا القول من حيث الدرجة التى يبلغها البشر فى المدنية والفنون والثقافة . ثم هو لا يصدق على جميع الطبقات حتى فى الامة المتمدنة . فاننا ما زلنا نجد الطبقات الفقيرة فى مصر والهند تعيش على المستوى الفطرى . بل الحال كذلك أيضا فى الطبقات الفقيرة فى أمم أوربا الجنوبية حيث يقنع أفرادها بالحياة السلبية أى باتقاء الموت والجوع والمرض والفاقة . وهؤلاء جميعا لايلتذون الحياة وانما يكابدونها

ولكن جميع الامم المتمدنة تحوى طبقات من الشعب تعيش الحياة الايجابية ، اذ هى قد اطمأنت من ناحيتى الجوع والمرض . بل هى قد استبعدت الموت الى ما بعد السبعين أو الثمانين من العمر . وهى تجد فى كفاية العيش ما يتيح لها الاستمتاع الروحى والمادى . وهذه الطبقات تمثل فى عصرنا طلائع البشرية القادمة حين يعيش جميع الافراد ، جميعهم بلا تمييز ، على المستوى الفنى الكمالى لان الضروريات تتوافر الى الحد الذى لا يحسب لها فيه حساب ولا تكون سببا للهموم والاهتمامات . وليس هذا العصر بعيدا . بل هو أقرب الينا مما نتخيل

والانسان فى كفاحه الاجتماعى ينشد الضروريات أولا حتى اذا توافرت طلب الكماليات . ثم تعود هذه الكماليات ضروريات الاجيال القادمة . فهى ترف أولا يقتصر على أفراد معدودين . ثم رفاهية ثانيا تشمل طبقة كبيرة . وأخيرا ضرورة لجميع أفراد الشعب المتمدن المثقف .

أنظر الى الطعام : نشد فيه الانسان البدائى الشبع . لايرجو

غير هذه الضرورة الفطرية . وانظر الى المسكن الذى كان يبنيه للاحتماء من الوحش أو العدو أوالجو. ومازال يسمى «بيتا» لانه كان للمبيت فى الليل فقط. وانظر الى اللباس الذى كان يتخذه للدفء . أجل لقد كان الطعام والمسكن واللباس من الضروريات ولكن من منا نحن المتمدنين يقنع من هذه الثلاث بالضروريات الفطرية فى عصرنا ؟

صحيح أن للفاقة ضغطها المرهق بين الطبقات التى لاتزال فى أسفل الدرج من السلم الاجتماعى . وصحيح أن هذه الطبقات لا تزال تقنع بالضروريات الفطرية من المسكن واللباس والطعام . ولكن فى كل أمة طبقات أخرى استمتعت بقسط كبير من المال والثقافة والحضارة . وهى لذلك تتوخى الفن فى كل ماتتناول من عمل . فالمسكن ليس مأوى أومبيتا فقط ، اذ هو متحف أيضا يتزين بالاثاث الفاخر والصور الجميلة والطرف الانيقة . وسيداتنا وآنساتنا لا يطلبن من اللباس دفئا قدر ما يطلبن منه زينة وجمالا . والمائدة التى تحمل ألوان الطعام نتفنن فى ترتيبها وايجاد الاطباق الثمينة والآنية الغالية عليها . وهذا الى ترتيب الزهور ونحو ذلك حتى ليعد تناول الطعام منها نشاطا ذهنيا فنيا وحتى لنكاد نأكل بعقولنا وأذواقنا العالية .

فهنا فنون فى البناء والاثاث واللباس والمائدة نرتاح اليها ولا نرضى بأن نعيش بدونها تلك المعيشة الفطرية التى كان يقنع بها الانسان البدائى وما زال يضطر الى أن يقنع بها أو بما يقاربها الفقير المغبون . وقيمة الفن أنه يرفع مألوفنا الى مستوى من الجمال نزداد به لذة واستمتاعا بل نزداد به فهما وتعقلا

وبالفن نرفع المشى الى الرقص . ونرفع النثر الى الشعر . ونجعل من الكلام بلاغة . وكذلك نستطيع أن نحيا الحياة الفنية فنهدف الى الفن فى الحياة ، والبلاغة فى السلوك والتصرف . ويجب

أن يكون فن الحياة أخطر من فنون الحضارة . لانه اذا كان من الحسن أن نتخذ الزى الفنى للباسنا فان من الاحسن أن نتخذ الزى الفنى لحياتنا وتصرفنا وسلوكنا

والمشكلة الاولى لكل انسان على هذا الكوكب أنه سيعيش سبعين أو ثمانين سنة . فكيف يقضيها ؟

هل يعيش تلك الحياة التى يصفها شكسبير بأنها « قصة يقصها أبله فتحتفل بالضوضاء والغضب ثم لا تكون لها دلالة ؟ » أو يعيش تلك الحياة البقلية يولد وينمو ويموت وكأنه بعض البقول لان قصارى ما كان يطلب طعام وكساء ومأوى ؟

قد يخطر بذهن القارىء عندما نذكر الحياة الفنية أو الحياة البليغة اننا انما نقصد الى زخارف وبهارج . ولكن الفن الخالص والبلاغة الحقيقية يعنيان فى لبابهما حكمة وسدادا . لان كلمات الحكمة هى أسمى أنواع البلاغة والفن . ولكن ما هى الحكمة ؟

هى العمل أحيانا بالمعرفة

وهى أحيانا تجاهل المعرفة

وأخيرا هى التمييز بين القيم والاوزان

والانسان يختلف من الحيوان من حيث أنه يتعقل فى حين أن الحيوان غريزى يندفع . ونحن نهدف الى قصد فى حياتنا فى حين هو يعيش جزافا . ونحن نقرر مصيرنا بأيدينا فى حين هو ينساق خاضعا للقدر . وقد يخالف قولنا هذا ذلك المنطق الآلى الذى يرتب النتائج على الاسباب ولكنه يطابق المنطق العملى الذى نحيا به فى مجتمعنا المتمدن

وحياتنا فى عصرنا هذا تضطرب وترتبك بل أحيانا تلتغز . وقد كان لآبائنا أعلام قديمة يسترشدون بها فى طريق الحياة الساذجة التى كانوا يحيونها . ولكن هذه الاعلام لم تعد تكفى لارشادنا فى طريق الحياة الجديدة . ولذلك نحن فى حاجة الى تعاليم

جديدة نتعلم بها كيف نحيا الحياة الفنية أى الحياة الحكيمة وكيف نقضى سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب ونحن نسمو وننضج الى الايناع . فلا تكون حياتنا مكابدة مؤلمة بل التذاذا روحيا وماديا . ونحن فى مجتمعنا انما نحصل من التعليم فى الاغلب، على أسلوب الارتزاق الناجح وليس على أسلوب الحياة السامية . لاننا ننسى أن الحياة أعم وأهم من الكسب . واننا نكسب كى نعيش ولا نعيش كى نكسب كما هى الحال الآن

وانما صارت الحال كذلك لان شبح الفاقة يلوح على الدوام فى مخيلتنا . ولذلك صار التعليم من أجل الارتزاق يغمر كل شىء آخر . لاننا نعيش فى اقتصاديات القلة فى حين أن اقتصاديات الوفرة على الابواب تنتظرنا بل تنادينا . ولا نحتاج الا أن نومىء بأصبع الرضى فيغمرنا الخير الوفير الذى لا نعرف فيه معنى الفاقة أو الحاجة . وعندئذ ، أى عندما نومىء هذه الايماءة ، ونرضى بالتعاون بدلا من المباراة ، فى الانتاج ، نستطيع جميعنا أن نعيش العيشة الفنية ونحيا الحياة الحكيمة وأن نتوخى مآربا فنيا فى كل مانتناول من معارف أو معايش

وهنا يثب علينا المتشائم : لكأنك ترى الدنيا مشرقة فى ألوان الورد وقد غمرت السعادة جميع البشر بما سوف يدبرون من تعاليم أو أنظمة . ولكن أين هذا التفاؤل من حقائق الدنيا ؟ من الامراض والرزايا ؟ من الرجل يفقد نور عينيه ويرى الدنيا ظلاما؟ من الأم تفقد طفلها وتضم لحمه الطرى ووجهه الحلو فى تراب القبر ؟ من الشاب يسمع حكم الاعدام من طبيبه الذى ينبئه بمرض لايعالج ؟

ولكن هذا التشاؤم قد بولغ فيه . لان الكوارث نفسها جزء من فن الحياة وحكمتها . وذلك الانسان الذى لم تكرثه كارثة تصل الى مخ عظامه ، وذلك الذى لم يحس اللوعة يغص بألمها ويجمد من هولها ، ذلك الانسان لم يحى الحياة الفنية ولم يعرف حكمتها .

وأقل ما يقال عنه أنه لم يعش الحياة الكاملة . ومع ذلك نحن نبالغ . فان كلا منا يعرف أن أعظم المصائب التى كان قد توقعها لم تقع له. وأن بعض هذه المصائب كان مفيدا قد انتفع به . أنظر الى قول داروين : « لو لم أكن متمرضا الى حد عظيم لما أتممت كل هذا القدر الكبير من الاعمال » وذلك لان التزامه السرير للمرض قد أتاح له الفرصة للتفكير وتصور الاحياء على طراز جديد

وانها لحكمة عظيمة تلك التى نطق بها كاهن انجليزى ، قبيل خلع الملك تشارلس الاول ، حين قال : « ان أعظم ما ينكب به انسان ألا ينكب . وأعظم مايعاقب به انسان ألا يعاقب »

وكثيرا ما نعيش سادرين ذاهلين حتى اذا كرثتنا الكارثة تنبهنا كأننا قد إستيقظنا من نوم فينبلج لنا نور وتنكشف لنا حقائق ما كنا لنراها لولا هذه الكارثة . وأيام المرض فى السرير كثيرا ماتكون أيام التنبيه والتجديد .

ونحن فى حاجة دائمة الى استعمال ذكائنا كى نميز بين لذة العاطفة ولذة التعقل ، وبين السرور الزائل والسعادة الباقية ، وبين الامتياز الذاتى فى النفس وبين الامتياز المادى فى العقار . أى بين مانكونه وبين ما نملكه

والحياة الفنية هى الحياة الجميلة . ومع جميع التعاريف للفن والجمال لا نزال عاجزين عن تعريفهما الصحيح الذى يحدد كلا منهما . ولكن من منا لا يعرف الفن والجمال ؟

ان هناك أشياء نعرفها بالاحساس النفسى . وأشياء أخرى نعرفها بالاختبارات الذهنية وليست الاولى دون الثانية وان تكن فى مرتبة أخرى . واذا كنا ننشد الفن والجمال فى الاثاث والبناء والرسم فاننا يجب أيضا ، بل بأكثر عناية وهمة ، أن ننشد الجمال فى الحياة ، فى الشخصية الرشيقة ، والذهن اللبق ، والجسم الانيق والمعارف المنسقة واللغة البليغة كما فى الاخلاق السامية والاهداف الروحية والعلاقات الاجتماعية .

نحن غريزة وعقل

كى نعيش العيشة الفنية ونحيا حياة الحكمة والتعقل يجب أن نعرف أن كلا منا مركب من غريزة وعقل . الغريزة هى قديمنا الموروث ، هى التقاليد الفطرية هى ذاكرة النوع الجامدة . والعقل هو جديدنا الذى يتعلم ويتمو ويميزنا بالفهم عن الحيوان

ذلك ان الحيوان يعيش بالغرائز أو أن ٩٩ فى المائة من حياته كذلك . وفهمه للدنيا ذاتى على مستوى منخفض ليس له تعقل موضوعى . ولكن الانسان بعقله يستطيع ان يجعل فهمه موضوعيا وان يصل الى حقائق الدنيا كما هى فى حقيقتها او ما يقرب من ذلك . وعلومنا وآدابنا وثقافتنا وحضارتنا انما هى ثمرات العقل وليست ثمرات الغرائز

الحيوان فى ذهول بغرائزه يحيا وكأنه فى حلم . والانسان بالمقارنة به فى تنبه ويقظة بعقله الذى يجعله يتصرف وهو يدرى انه يتصرف . ولكن الحيوان لا يدرى

وهذا العقل هو الذى يجعلنا على دراية بالموت والفقر والكوارث حتى قبل وقوعها . ونحن بالطبع نشقى بكل ذلك . ولكن هذا الشقاء « انسانى » ولا نرتضى النزول عنه كى نعيش بالغرائز . نعيش فى ذهول كما يفعل الحيوان . وعندما نربى أنفسنا أو أبناءنا انما نعمد الى هذا العقل ونستنبط التفكير ومحاولة التعرف الى الاشياء كما هى فى حقيقتها وليس كما تصورها لنا غرائزنا .

وواضح انه ليس هناك انسان يعيش بعقله فقط يتعقل كل شىء ويتفهم الدنيا تفهما موضوعيا . لان كثيرا من تصرفنا يعود الى الغرائز التى نندفع بها أحيانا اندفاع الحيوان او نسلط عليها التعقل فنعين لهذا الاندفاع سرعته وطريقته .

ومهما حقر الانسان وهان وانحط فانه يستطيع ، عندما

يتأمل عقله ، أن يقول : ما أعظمنى! اى ما أعظم عقلى الذى يتجرد من غرائزى ، ويبحث النجوم والكواكب والاخلاق والشرف ، والسياسة ومستقبل البشر ،وفلسفة الكون وتطور الاحياء .

ومهما عظم الانسان وسما ونضج فانه يستطيع ، عندما يتامل غرائزه ، ان يقول :ما أحقرنى ! اى ما احقر هذه الغرائز التى اندفع بها الى الطمع والحسد والعدوان والاقتناء والانغماس والنهم والشر !

ولان الانسان عرف الخسة التى تنحدر اليها غرائزه وأحس مضض النفس وصداع القلب فى المواقف التى اصطدم فيها عقله بغرائزه ، لانه عرف هذه المواقف عمد فى كثير من الاحيان الى جحد هذه الغرائز بالزهد والنسك. ومن هنا نشأت الرهبنة فى بعض الاديان انكارا للغريزة الجنسية ولبعض الغرائز الاخرى كالاقتناء والتسلط والحسد والانغماس الخ كأن الغاية ان نعيش بالتعقل ولو مع الحرمان

ولكن هذا الانحياز نحو التعقل وانكار الغرائز لايطيقه الا الاقلون . بل يجوز لنا ان نشك حتى فى هؤلاء « الاقلين » وهل اطاقوا نسكهم وهل استطاعوا انكار غرائزهم أم بقيت هذه الغرائز كامنة مختبئة فى أغوار نفوسهم تتحين الفرص لا للثورة على العقل فقط بل أيضا للتسلل ملتوية منحرفة عن طريقها حتى حملتهم على أن يسلكوا السلوك الشاذ ويتصرفوا التصرف السيىء المخبول ؟

ونحن نعرف من السيكلوجية ان الغريزة وقت التهابها عندما نسميها عاطفة تفور بنا كالماء المغلى وتطلب المنفس والمخرج فاذا لم تجدهما اندست وبقيت بقوتها تبحث عن المخارج الضعيفة حتى اذا وجدتها انفجرت فلا يكون منها غير الاذى الفادح لشخصيتنا .

واولئك الذين حبسوا الغريزة الجنسية مثلا لم ينجحوا قط فى الغائها ومحوها . وقصارى ماوصلوا اليه عربدة جنسية مختلفة الالوان والاسماء . اوهم قد خدعوا انفسهم من حيث لايدرون فاتجه نشاطهم الجنسى الى ألوان قاتمة من السلوك والتصرف تؤذى المجتمع وتفتت شخصياتهم هم . بل ان السيكلوجية الحديثة لتعرف الوانا من الهوس الدينى ترجع فى الاصل والاساس الى الحرمان الجنسى

ولا يطالبنا فن الحياة بكظم العواطف وقمع الغرائز . لأننا لا نستطيع أن ننكر طبيعتنا ، اذ أننا غرائز وعقل . فيجب أن نصالح بينهما أى نهذب غرائزنا ونجعلها ملائمة لقواعد المجتمع الذى نعيش فيه دون قمع أو جحد .

وفى أغلب الاحوال ينتهى معنى التهذيب للغرائز الى الاعتدال فلا نسرف فى الانقياد للعاطفة الجنسية ولا نغلو فى الطموح والغيرة والحسد والتسلط . وكلمة «غريزة» من الكلمات الغامضة لأننا نجهل أصلها هل هو طبيعى أم اجتماعى . ولكنا عند ما نتأمل نشاطنا الاجتماعى كله ، ذلك النشاط الذى ينظمه العقل ، وان كان مرجعه غريزيا ، نجدانه يعود الى ما يشبه أن يكون غريزة واحدة هى شهوة الامن والطمأنينة .

وهذه الشهوة أصيلة فى الطبيعة البشرية وهى التى تدفعنا الى جمع المال واقتناء العقارات والمنقولات والانغماس فى الكسب كما أنها هى الاصل فى الغيرة والحسد والطموح والطمع . ونحن نمارس كل هذه الاشياء مدفوعين بالخوف أى الرغبة فى الطمأنينة ثم ننساق فى عادات هذا النشاط التى تتملكنا فلا نعرف أين نقف . كتلك البهيمة التى نشدها الى الساقية فتدور وتجرها مكرهة حتى اذا جئنا كى نحل رباطها ونطلقها رفضت واستمرت فى دورتها بقوة الاندفاع الاول .

فهناك مثلا من ينساق لغريزة الخوف ويطلب الطمأنينة بجمع المال . وهذا حسن اذا عرف أين يقف ومتى يقنع بمقدار من المال يحقق هذه الطمأنينة . ولكن بعيد جدا أن يعرف هذا لأنه ، حتى بعد أن يحقق هذه الطمأنينة ويجمع من المال ما يكفيه هو وعائلته ، ينساق فى عادة الجمع . فلا يكون المال خادمه بل سيده الذى يستبد به ويحمله على الجهد أكثر من عماله الذين يخدمونه حتى ليصل الى مكتبه أو متجره قبل دخولهم ويخرج بعد خروجهم

وهذا هو شأن كثير من الناس الذين يشقون لأنهم ينساقون مندفعين بغرائزهم دون أن يسلطوا عقولهم عليها فيعتدلوا وينظموا نشاطهم كى يعيشوا الحياة الفنية المتناسقة . ومن شأن الغرائز أنها تسرف وتغلو لأن الطبيعة تحرص على بقاء النوع وقد جهزتنا بهذه الغرائز قبل أن تجهزنا بالعقل وذلك كى تكفل لنا البقاء والتغلب فى ميدان التنازع بين أنواع الحيوان وأفراده للبقاء. اعتبر مثلا غريزة التناسل . فارجلا واحدا ، واحدا فقط ، يحمل فى جسمه من الجراثيم المنوية ما يكفى لتلقيح أناث النوع البشرى كله . ونجد مثل هذا الاسراف فى سائر الغرائز . فان غريزة الحيوان تحملنا على الرغبة فى التسلط بامتلاك هذا الكوكب اذا قدرنا . وقد حاول ذلك الاسكندر وتيمورلنك ونابليون وهتلر بل لقد كان الطاغية فاروق يسرق وينهب ويغش ويقامر كى يجمع المال مع ان ما كان يملكه كان من الكثرة بحيث يكفى انسانا مليون سنة ... وحين نشرع فى الاقتناء نتوهم أننا يجب أن نجمع ما يكفينا ألف سنة .

وقيمة العقل انه يتسلط على غرائزنا ويحملنا على الاعتدال ولكن بلا زهد أو نسك . أى بلا انكار للغرائز . وقد يكون لقليل من الزهد قيمة فى التذاذ العيش أى فى التأنق فى الاختيار بالامتناع

عن قبول كل ما يرد . كالعطش يجعل الشراب أسوغ والجوع يجعل الطعام أمرأ . ولكن الاستمرار عليهما جنون قاتل .

وتقتضينا الحياة الفنية أن نعيش بالعقل والغريزة معا فى مصالحة ووفاق بين الاثنين . ولكن فى انحياز نحو العقل لأن العقل انسانى والغريزة حيوانية . ولأن الفرق بين الانسان الانسانى والانسان الحيوانى هو أن الاول يعتمد فى الاكثر على عقله فى حين يعتمد الثانى فى الاكثر على غرائزه .

كيف نسوس عواطفنا

العواطف قوات انفجارية . وهى تكسبنا الطاقة التى ننبعث بها الى النشاط الذهنى أوالجسمى . ولولا هذه القوة الانفجارية لما تحركنا الى الطموح أو الدراسة و الكسب . وهى لذلك جهاز نافع أيام الصحة . ولكنها تستحيل الى قوة معربدة أيام المرض نتطوح بها الى الجنون او الشذوذ أو الاجرام .

والعواطف فى مجموعها اجتماعية اى أننا نكسبها من المجتمع وليس من الطبيعة . وصحيح ان هناك عواطف نرثها وراثة طبيعية كالعاطفة الجنسيه أو عاطفة الجوع الى الطعام . ولكن حتى هذه العاطفه « الطبيعية » تتخذ الوانا اجتماعية .

والمجتمع ... نعيش فيه بما له من طرق فى كسب العيش وأساليب الانتاج ، يعين العواطف الشخصية لكل منا . فاذا كنا نعيش فى نظام اقتصادى يقوم على المباراة فان صفات الانانية والغيره والرغبه فى التفوق والاقتناء والطموح تصير عواطف شخصية تحفزنا الى العمل والكسب . واحيانا ... تستحيل هذه الصفات الى عواطف سيئة . كالحسد والتسلط والخوف .

وتحدث لنا عواطف أخرى اذا كنا نعيش فى مجتمع تعاونى ليس فيه سيد ومسود وغنى وفقير وكانز ومحروم كما هى الحال فى المجتمعات الاشتراكية

ولأننا نعيش فى مجتمع قائم على المباراة ، فان جميع الرذائل التى تستتبعها المباراة تتخذ شكلا عاطفيا فى نفوسنا . ولذلك نشقى كثيرا بالانانيه والحسد والرغبة فى التفوق والاقتناء والطموح . ذلك أن الوسط الاقتصادى محدود الفرص . فقد يجد غيرى فرصة لا أجدها انا فيسبقنى واغار من تقدمه واحسده على ذلك . وكل هذه العواطف تؤذينى أو هى تبعثنى على الافراط فى الجهد حتى أموت قبل الاوان بزيادة الضغط للشرايين او بعجز

القلب أو بالاختلال فى التمثيل السكرى أو قد أبقى مريضا بهذه الامراض وغيرها وأشقى بها . وهذا الى هموم لا تنقطع تغشى نفسى بالغم والكآبة وقد تحملنى على الانتحار .

ولذلك نحتاج ، كى نعيش الحياة الفنية فى هناء ، أن نسوس عواطفنا حتى تدفعنا الى السير متئدين ، وحتى لا تكون انفجارية تثور بنا وتبددنا . وأول ذلك أن نعرف ، بضمير يقظ وتعقل متزن ، اننا نعيش فى مجتمع قائم على المباراة . وانه يحملنا على اتجاهات مؤذية . فيجب أن نجعل القناعة الاقتصادية مصباح الهداية الذى نستضىء به . فلا نتطوح فى مطامع لا نقوى على تحقيقها فنكون لها عبيدا نجرى ونهرول طوال حياتنا كأننا مسخرون فى جمع المال واقتناء العقار .

وليس هنا مقام التحليل لعواطفنا المختلفة حتى نثبت للقارىء أنها كلها تقريبا تعود الى مجتمعنا . فان غيرة المرأة من حماتها ، أو العكس وكذلك مناكدة الرئيس لمرءوسيه ، ثم الاهتمام المريض للمستقبل والتضحية بالحاضر للمستقبل ، ثم الخوف من الفقر والخوف على الاولاد من الاخطار ، كل هذه العواطف تعود الى نظام نفسى ينهض على أساس المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه

وقصارى ما نستطيع أن نبسطه فى هذا الفصل هو نصائح موجزة نبغى بها علاج المجتمع الاقتنائى الذى نعيش فيه . أى علاج الفرد مما نجلبه عليه العواطف التى غرسها فيه المجتمع . أما العلاج الحاسم فهو تغيير المجتمع من المباراة الى التعاون ومن الاقتناء الفردى الى الاقتناء الاجتماعى .

١ – من شأن العواطف أنها لا تؤذينا اذا كانت الكارثة كبيرة فادحة ولكنها مع فداحتها مفردة . أى وقعت مرة واحدة ثم انتهت . فنحن نتحمل الافلاس التام ، أو موت الابن أو الأم ، أو كارثة الغرق أو الحريق أو الطلاق . ولكننا لا نتحمل الزوجة تناكدنا كل صباح على الطعام أو القهوة . وكذلك تتحمل الزوجة معاكسة حماتها . ولا يتحمل الطالب توبيخ أبويه كل يوم لفشله

فى الامتحـــان . أى اذا تكررت المناكدة أو المعاكسة كل يوم ، ولو كانت لأسباب تافهة ، أدت الى الانهيار العصبى الخطـير . لأن العبرة بالتكرار .

٢ ـ لهذا السبب يجب ألا تعيش الزوجة مع حماتها أبدا . واذا كانت هناك ظروف تضطرهما الى الاشتراك فى العيش فليـكن هذا على دراية منهما . أى يجب على كل منهما أن تعرف أنها فى حالة شاذة وأن تحتاط من الوقوع فى المناكدة أو المعاكسة أو المضارة

٣ ـ يجب عـلى الأب ، اذا فشل ابنه أو بنته فى الامتحان ، ألا يعمد الى تقريعه كل يوم . لأن هذا التقريع قد يؤدى الى انهيار عصبى خطير . وخاصة اذا كان بين ١٧ ، ٢٥ . ومرض الشيزوفرينيا الذى يتفشى كثيرا فى مصر يعود الى كراهة الشبان للدنيا لأنهم حرموا الاستمتاع بها . وقد كان يسـمى « مرض المراهقة » لأن أكثر اصـاباته للشبان فيما بين سن ١٥ وسن ٣٠ . وأعظم علاماته الخـلوة والصمت والتبلد والسكون . ثم يتطور الى أسوأ .

٥ ـ الاهتمامات الكثيرة المتنوعة تخفف من ضغط العاطفة ، وتحول دون اجترارها .

٦ ـ اذا ثقلت العاطفة فان النشاط الجسـمى يخفف من ثقلها . حتى المشى والجرى يخففان من ثقلها .

٧ ـ من الواجب أن ننبه الرؤساء فى المصانع والمكاتب الى أن يكفوا عن معاكسة مرءوسـيهم حتى لا يكون أحدهم كالحماة التى تبعث بزوجة ابنها الى المارستان لانها لا تفتأ توبخها وتبخسها .

٨ ـ يجب أن نقلل من مظاهر الحزن مثل احتفـال الاربعين للمتوفى أو التفجع فى الجرائد على المتوفين . لأن هذه المظاهر تحيى الحزن القديم عند الغير .

وهذا أحسن ما نستطيع أن نقول فى مجتمع المبـاراة الذى نعيش فيه .

التربية

لا تقل طفولتنا الفطرية عن ١٧سنة. ولا تقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة . ومعنى هذا أنمدة التربية عندنا طويلة . وذلك أننا لا نولد بأجهزة من الغرائزالتامة التىنعمل بها بلا تعليم كما تفعل صغار السمك التى تسبحعندما تخرج منبيضها ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيورالتى تحتاج الى شىء قليـــل من التعليم كى تطير وتجرؤ علىاقتحامالجو .

ذلك أننـــا نحـن البشر قداستغنينا عن الكثير من غرائزنا أو قد وضعناها فى الصفوف الخلفيةمن كياننا النفسى وأقمنا العقـل وصيا عليها يديرها ويوجهها .حتى أننا لا نأكل ولا نتناسل فى استسلام كامل للغرائز اذ أننانسلط العقل هنا أيضا ونجعل له التصرف الأعلى . وصحيح أننالا نستطيع أن نخمد هذه الغرائز ولـكننا نسـتطيع التصرف بهـاوتوجيهها .

وتسلط العقل يجعل التربيـةضرورية لكل فرد منا . وخاصة اذا كنا نعيش فى مجتمع راق أىأرقى وأكثر تركبـا من المجتمـع الزراعى أو البـدوى . وتتجـهالتربية فىعصرنا الى ايجاد عادات ومهارات نكسب بها العيش ..وليسمن شك فى قيمة هذهالتربية وخاصة فى مجتمع لا يزال يعيشعلى اقتصاديات القلـة وليس على اقتصاديات الوفـرة التى يلتمـعفجرها الآن فى الأمم المتقدمة فى الانتاج الآلى. ولكن التربية يجبأن تكون للحيـاة قبل أن تكون للكسب .

وكذلك يجب ألا ترمى التربيةالى تعليمنا المعـارف والثقـافة فحسب وانما يجب أن توجهناالوجهة التى نتعلم بها وحدنا . وكى نوضح قصـدنا نطلب الىالقارىء أن يقـارن بين أرسطو طاليس وبين تلميـذ فى السـنةالثالثة أو الرابعة من مدارسـنا

الثانوية . فليس من شك أن التلميذ يفضل هذا الفيلسوف فى كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية والجغرافية . ولكن أرسطوطاليس كان يمتاز باتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف . وهذا الاتجاه يحتاج تلميذنا الى خمسين أو ستين سنة حتى يصل اليه . بل قد لا يصل اليه لأنه لا يجد من يرشده .

وبكلمة أخرى نقول أن ميزة رسطوطاليس كانت منهجية خاصة بالحياة . أما ميزة التلميذ فمعرفية خاصة بالحرفة

ليست التربية السديدة أن أعرف وانما هى أن أعرف كيف أعرف أى كيف أعلم نفسى وأزيد معارفى وأكون طالبا مدى حياتى . وليست التربية أن أعرف كيف أكسب العيش بل هى أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب فى نمو لشخصيتى وترقية لذهنى . ويجب ألا يكون هدف التربية ، كما هو الآن ، النجاح الحرفى للكسب ، اذ يجب أن تهدف الى النجاح فى الحياة . لأن الحياة أكبر من الحرفة والنجاح فيها يقتضى النجاح فى الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية والارتقاء الفنى والذهنى الخ ..

يجب أن تهدف التربية الى أن تحمل كلا منا على الاهتمام بالاثاث الأنيق والرسم الفنى كما نهتم للكسب فى مجتمع افتنائى يعيش أفراده بالمباراة . ويجب أن تحرك استطلاعنا الى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه الى تقدير ألوان الجمال فى الطبيعة : القمر فى الريف والشمس فى البزوغ والبحر والقفر والجبل والسهل . لأن هذا الكوكب كوكبنا ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها .

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شىء الى درس الفنون والى ترقية الاحساس الفنى بحيث نسلك ونتصرف ولنا فى كل ذلك مأرب

فنى . حتى اذا سرنا فى حديقة استمتعنا بالزهور وهى على شجرتها فى اشراقها وايناعها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها أى قتلها .

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاى

ويجب أن نزداد رغبة فى امتلاك هذا الكوكب نفسيا وذهنيا وفنيا كلما ازداد هو تقلصا بالمخترعات الجديدة حتى تتسع آفاقنا ، حسا وذهنا ، فلا تضيق بحدود القطر أو القارة بل تشمل شئون العالم كله والبشر جيمعهم

ثم يجب ألا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن أى تزيد التعقل حتى نعيش فى يقظة ونطلب زيادة هذه اليقظة بتعلم المعارف والفنون . فلا نعيش ذاهلين ذهول الحيوان الذى تسوقه غرائزه . والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الذاهل وهو يعود فى الاغلب الى عادة القراءة . وكذلك الفرق بين شيخ هرم قد خرف أو تبلد ذهنه ، وبين شيخ لا يزال لذهنه حدة ، فتوة ويقظة وذكاء ، يعود الى أن الاول لم يتعود القراءة ، وأن الثانى قد تعودها . والقراءة تجعل الكلمات مألوفة فى الذاكرة سهلة الاستحضار . ولما كانت المعانى مجسمة فى كلمات فان من البعيد جدا أن نجد رجلا يهرم ويتبلد ذهنه ما دامت الكلمات حاضرة معدة لتنبيهه . لأن الكلمات أفكار .

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعود القراءة لان الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة بالرياضة وتبقى هذه المرانة الى الشيخوخة .

كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية شاملة كلية . أى يجب أن نلم بجميع المعارف البشرية . وصحيح أنه يجب أن تكون لنا

بؤرة أى نقطة للتعمق والتخصص فى المعـــارف . ولكن يجب أن نتشعع من هذه البؤرة العميقـة الى التوسع فى الآفاق الذهنية الرحبة . كما يجب أن يكون كل منا سقراطيا . أى يعرف أنه لا يعرف . فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسـفات ويبقى على هذا حتى يموت « وعلى صـدره كتاب » كما قيل عن الجاحظ .

وفى المستقبل القريب ، بل القريب جدا ، ستتغير التربية من التعليم للحرفة الى التعليم للحياة . وعندئذ نتجه نحو استخدام فراغنا الذى سيزيد عاما بعد آخر . وكثير منا حتى فى عصرنا هذا يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أو خمس ساعات كل يوم . وعندئذ ستكون مشكلة التربية : كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ وكيف ينتفع به ويستمتع ؟

وهذا السؤال يعود بنـــا الى النغمة التى نفتأ نعزفها وهى أننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة وكيف يتعمقون فى حياتهم ويتوسعون ولا يقنعـون منهـا بالعيش على ســطحها أو هامشها ، نعلمهم أن غاية التربية أن يحيوا وليس أن يحترفوا . ونحرك فيهم العقل الاسـتطلاعى التســاؤلى اليقظ الذى يشتهى المعارف ويعرف أيضا أين يبحث عنها ويجدها ، ونعلمهم أن هدف الحياة : هو الحياة نفسـها فى تعمق وتأنق . وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق .

وأخيرا نقول ان التربية الحقيقية هى التربية الذاتية . فلا ييأس أحد لأنه لم يمتز بتعليم جامعى أو لان ظروف حياته الماضية لم تهيىء له الفرص للدراسة ، لأنه يستطيع أن يشرع فى أى وقت وأن يضع البرنامج الدراسى الذى تحتاج اليه تربيته وهو أقدر انسان على وضـع هذا البـرنامج اذ هو الوحيد الذى يعـرف حاجـاته وكفاءاته .

قيم جديدة في التربية

كثيرا ما أتأمل وأقارن بين الحكمة والمعرفة نستخرجهما من الخبرة بالدنيا والمجتمع ، أو نستخرجهما من الكتب والدراسة

تأمل شابا حصل على الشهادة التوجيهية ثم التحق باحدى الكليات في الجامعه . ودرس عاما كاملا ، علما أوفنا كالهندسة أو الزراعة أو الادب أو الفلسفة . ثم قارن هذا الشاب بزميل له قد حصل على الشهادة التوجيهية ولكنه أمضى هذا العام في تجارة أو حرفة ما بحيث اضطرته الظروف الى الكسب او الخسارة والى الاختلاط بالجمهور يؤدى الخدمات المختلفة لافراده سواء أكانت هذه الخدمات في مكتب أم في متجر ام في مصنع

تأمل هذين الاثنين آخر العام وقارن بينهما ، ثم قل أيهما أكثر حكمة ومعرفة ، ذلك الذى قضى عاما في الجامعة ام الآخر الذى قضى هذا العام في المجتمع ؟

الذى لا شك فيه أن هذا الثانى أكثر حكمة ومعرفة .

الاول قد عرف الكيمياء أو المبادىء الهزيلة للفلسفة أو القليل من النبات أو الحيوان أو الهندسة الميكانية . أما الثانى فقد عرف الناس والبواعث البشرية للسرور او الغضب ، وللأمانة أو الغش ، وللطمع أو الرضى . وفهم معانى النجاح وعلل الخسة

الاول علمته الجامعة علما أوفنا أما الثانى فقد رباه المجتمع وفتح قلبه وعقله لمعانى الحياة

***

الحياة ، المجتمع ، الاستقلال الشخصى ؛ الهدف

كل هذه الاشياء لا تستطيع المدرسة أو الجامعة أن تعلمنا اياها وهى تتركها لنا بعد أن نتخرج ونشرع في درسها .

ولكن الامريكيين عرفوا هذا النقص في المدرسة والجامعة . ولذلك عودوا ابناءهم الكسب والعمل مدة الدراسة . حتى أن

طالب الجامعة فى الولايات المتحدة يكاد يخجل من ابيه أو أمه اذا احتاج الى سؤالهما لمساعدته ، اذ هو يعمل فى المدينة الجامعية التى يقيم فيها . يعمل أى شىء، ولا يحتقر عملا ما دام شريفا لا يمس ضميره .

يعمل جرسونا فى مطعم أو مقهى . ويعمل منظفا للمتاجر أو بائعا فيها. وقل أن تجد مكتبة أو مطعما أو مصنعا فى نيويورك أو غيرها الا وتجد بين عمالها طلبة من الجامعة يعملون ساعة أو ساعتين فى النهار أو الليل يكسبون منهما ما يكفيهم للانفاق على تعليمهم

وهذا العمل الكاسب يكسبهم استقلالهم ، وهم بعد فى العشرين من العمر أو حواليها ، كما يبصرهم بشئون المجتمع اذ يلتقون بأفراده المختلفين ، ويتعرفون الى أخلاق جديدة ، ويسمعون آراء غريبة لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوها لو أنهم كانوا قد قنعوا بمحاضرات الجامعة ومذاكرة الدروس

ويتعلمون فوق ذلك القيم الروحية للانسان المتمدن . . وأعظمها قدرا أن الذى يستهلك طعاما أو لباسا أو سكنى أو خدمة يجب أن ينتج مثل هذه الاشياء وأن الرجل الصالح هو ذلك الذى ينتج لمجتمعه أكثر مما يستهلك . وهذا هو مقياس الصلاح فى عصرنا .

ويتعلمون أخيرا أنه ليس هناك ما يحتقر من الاعمال . فليست فلاحة الارض أو كنس الشوارع أو بيع البقول مما يحتقر ، لانه ما دام المجتمع يحتاج اليها فلا يمكن أن تكون حقيرة

قبل نحو ربع قرن هبط القاهرة أكثر من مائتين من الطلبة الامريكيين الذين كانوا يطوفون العالم وينزلون فى مدنه ويتعرفون الى شعوبه . وكانت هذه السياحة جزءا من تعليمهم ومحاولة أمريكية بديعة لجعل التعليم عمليا اجتماعيا بقدر المستطاع .

واستدعتنى الادارة المشرفة على هؤلاء الطلبة ، أنا والآنسة مى.

كى نتولى الاجابة على الاسئلة التى يسألها هؤلاء الطلبة والتقينا فى قاعة كبيرة فى فندق شبرد

وهناك صار الطلبة يسألوننا أسئلة عميقة عن تاريخنا وحكومتنا واقتصادياتنا وعن أحوال المرأة والعامل ويدونون الاجابات ، وعرقت ولهثت ورأيت مى تعرق وتلهث .

وكان أحد الطلبة قد سألنى: هل يجد طلبتنا أعمالا حسنة يكسبون منها فى القاهرة مدة دراستهم ؟

فاستنكرت السؤال لاول وهلة . ثم شرح السائل لى أحوال الطلبة فى أمريكا وانهم كلهم يعملون ويكسبون . فلما فهمت موقفه ، أخبرته بأن مثل هذه الحال لايمكن أن توجد فى القاهرة لان أجور العمال عندنا منخفضة جدا .

وخرجت من الفندق ، وأنا أحس أنى قد انتفعت كثيرا ، وقد فهمت أشياء جديدة عن التعليم الجامعى فى أمريكا . فانه ليس تعليما . اذ هو تربية .

***

وكثيرا ما أقارن بين طالب جامعى فى مصر يعطى بعض الدروس لتلاميذ المدارس الابتدائية أو الثانوية ويكسب منها مقدارا من المال ينتفع به فى عيشه وتعلمه، وبين آخر لا يفعل هذا . فأجد عند المقارنة أن الاول قد حذق شيئا من العادات الاجتماعية التى لا يعرفها أو لا يحسنها الثانى ، كما أنه قد تكونت له شخصية لم تتكون للثانى .

وأحيانا أجد مثل هذه الحال فى طالب جامعى قد التحق باحدى الصحف ، فانه قد يكسب منها قليلا من المال . ولكنه يكسب كثيرا فى تكوين شخصيته وتعيين هدفه وتربية ضميره . هذا الضمير الذى يجب أن نربيه على احترام العمل والخدمة قبل احترام الدرس والشهادة

وأحيانا يخطر فى بالى ، لهذا السبب ، أن أقترح على وزارة المعارف أن تمنع التحاق الطلبة بالجامعة عقب حصولهم على الشهادة التوجيهية الا بعد أن يقضوا سنة فى الخدمة ، أية خدمة . وذلك كى نغرس فيهم الاحساس بأن الولاء للشرف والوطنية والانسانية يقتضى الخدمة والانتاج ، وأن الدراسة ليست ترفا أو متعة ، وانما هى تأهيل للخدمة والانتاج

وهذه السنة التى أقترحها للعمل، تربى ضميرهم وتعوضهم من تلك الفرصة الامريكية التى تتيح للطالب أن يدرس ويعمل فى وقت معا ، أى يتعلم ويتربى فى وقت معا

أجل علينا أن نعلم الطلبة طرازا جديدا من صلاح النفس بأن نقول لهم : يجب أن تحسوا عندما تموتون بعد العمر الطويل ، أنكم قد أنتجتم لأمتكم أكثر مما استهلكتم . وأن الأمة أثرت بحياتكم ثراء ماديا أو روحيا ، وأنها صارت بحياتكم أفضل مما كانت قبل ميلادكم .

يجب ان تعرفوا ان الرجل الصالح ليس هو ذلك الذى يصلى فى الليل والنهار ويقنع بذلك . وليس هو ذلك الجامل الذى يسير خلف الجنازات ، وليس هو ذلك المحسن على الفقراء ، بل ليس هو ذلك الاب الذى يقنع بحب زوجته وتربية ابنائه ، لا انما هو قبل كل شىء ذلك الذى يعطى المجتمع اكثر مما يأخذ منه ، أى ينتج أكثر مما يستهلك .

والمرأة الصالحة ليست هى ربة البيت فقط . وليست هى الأم فقط . وليست هى التى تعنى بزوجها وأبنائها فقط . وانما هى تلك التى تعلمت حرفة وأحسنت عملا اجتماعيا ، وعملت وكسبت ، واصابت وأخطأت . ثم انتجت أكثر مما استهلكت حتى أثرى المجتمع بحياتها . ومع ذلك لا ننسى أن

ولادة الابناء انتاج عظيم . ويكون هذا الانتاج اعظم اذا كان هؤلاء الابنـاء على صـحة فى الجسم وسلامة فى النفس موروثين من الأبوين ثم عـلى تربيـة قد اكتسبوها عن القدوة بأبويهم ومن العيش فى عائلة متمدنة وبيت حر .

***

أسوأ الناس هو ذلك الكاتب او المؤلف الذى ينكب على الورق والحبر والقلم لا يعرف غيرها . فانه شخصية انسانية هزيله . أكاد أحس وأنا أتخيله أو أتأمله أن الذى يجرى فى عروقه ليس دما أحمر حيا تمرح فيه الخلايا الحمر ، وانما هو حبر أسـود ميت مر عفص .

ذلك أننا يجب أن نكتب كى نحيا ، ونحيا كى نكتب . واذن يجب أن نختلط بالمجتمع ، نشتغل بالسياسة العالمية ونكافح من أجل المبادىء الاجتماعية ، ونحب جمال المرأة وبهجة الزهر ونضرة الحقل ونقتنى الكلب والجواد ، ونعانق الطبيعة فى السر الحميم على خلوة بهـا فى حلكة الليـل ، نتأمل نجومها ، ونحاول اقتحام غيبياتها كما نختلى الى شجرة التوت المنعزلة فى النهار . نقعد تحت قبة من أوراقها الخضراء نتأمل ونفـكر الافكار الخضراء

كما نحب الادب والفن ونبحث العلوم والفلسـفات والاديان ونقف متلبثين عند وصف التوراة للخمر على لسان يعقوب بانها «دماء الاعتاب» أو قول دستوفسـكى بأنه يؤثر ان يكون مع المسيح على أن يكون مع الحق .

***

ويجب أن نشتغل بالسوق والبورصـة والمصـنع والمزرعة ، نسأل عن نظمها وأجور العمـال فيها ومساكنهم وثقافتهم . لأن هذه الشئون جميعها هى المجتمع الذى نعيش فيه والذى لا يجوز لنا أن نكتب شيئا عنه ما لم نكن قد درسناه واختبرناه .

بل كذلك يجب أن نسيح فى الاقطار الاخرى كى نرى ونقارن بين عاداتنا ونظمنا وبين عادات الشعوب الاخرى ونظمها • حتى تتكون لنا من ذلك بصيرة مضيئة ترشدنا الى فضائلنا فنستمسك بها ، أو تعين لنا رذائلنا فنكف عنها •

وهذه الدراسة لشئون المجتمع ، وهذه السياحات فى الاقطار الاجنبية ، هى بمثابة التدريب العملى الذى يجده الطالب الامريكى مدة تعلمه فى الجامعة • تدريب للكاتب والاديب كى يحسنا الكتابة عن المجتمع ، الذى يجب أن يكون على الدوام موضوع الادب أو الصحافة

نحن نعيش في المجتمع المتمدن بدستور أخلاقي نأخذه كله أو ٩٩ في المئة منه من العائلة التي نشأنا فيها والشارع الذي مارسنا فيه اختبارات الطفولة ومن زملاء المدرسة والحرفة ومن غير هؤلاء ممن تحملنا حياتنا الحرفية أو الاجتماعية أو السياسية على الاحتكاك بهم. ونحن نزن الرذائل والفضائل بميزان هذا المجتمع ونأخذ بالقيم التي يعينها لنا .

وكثيرا ما نأخذ بقيم وأوزان فاسدة لان المجتمع الذي نعيش فيه فاسد. وكثيرا ما يخفى علينا هذا الفساد فنندفع في التيار لا نقف ولا نتردد . ولكن أحيانا نقف ونتردد . وعندئذ يكون التقلقل النافع والبحث والتجديد المربيين . ثم تكون قيم وأوزان جديدة

والقيم والاوزان اما أن تكون اجتماعية واما أن تكون بشرية . واذا كان المجتمع راقيا كانت كل أو معظم أوزانه بشرية . ومثال الاوزان البشرية استنكار القتل والفقر والمرض والجهل والتعصب وصيانة الصحة ومكافحة المرض. وتنوير الذهن بالمعارف وتوزيع الثروة بحيث لا يكون فقر مؤذولا ثراء مبطر . ومثال الاوزان والقيم الاجتماعية التزين واقتناء القصور والضياع والجواهر والتفاخر بالولائم وأبهة العرس أو المأتم والالقاب ونحو ذلك .

وكي نزيد الايضاح نفرض أن صديقا مات وترك زوجته وجملة أولاد . فالرجل الذي تغلب عليه الاوزان والقيم الاجتماعية سيحضر المأتم ويسير خلف الجنازة ويحضر الصلاة ويعزي أسرة المتوفى ثم يعد نفسه قد أنجز جميع واجباته. وربما قد يبالغ في هذه الواجبات فينعاه في الجرائد . ولكن الرجل الذي تغلب عليه الاوزان والقيم البشرية قد يهمل كل هذه الواجبات ثم يبحث عن حال الارملة وأولادها. فاذا وجد انهم في حاجة الى المال تبرع من جيبه وجمع من

غيره ما يقيتها . ثم هو يرعى الاولاد بالنصيحة ويهيىء لهم وسائل التعليم ويرعى العائلة تلك الرعاية الاقتصادية التى فقدتها بموت العائل .

ومن هنا نعرف أن الضمير الحسن هو الضمير البشرى وليس هو الضمير الاجتماعى .

ومن هذا المثال الذى ذكرنا ، نستطيع أن نتوسع فنقول :

ان للصحة قيمة بشرية مطلقة . ولكن للمال ، بعد أن يتجاوز حدا ما ، قيمة اجتماعية فقط . والشاب الذى ينشد فى الفتاة جمالها انما ينشد قيمة بشرية ولكنه عندما ينشد ثراءها انما ينشد قيمة اجتماعية . ومن هنا أيضا نقول ان للزواج قيمة بشرية ولكن أبهة العرس وجهاز العروس ومكانة أبيها ونحو ذلك تعد من القيم الاجتماعية .

وكثيرا ما تستهلك القيم والاوزان الاجتماعية مجهودنا وصحتنا كما تحول بيننا وبين القيم البشرية . كأن نندفع فى جمع المال فنفقد صحتنا قبل الخمسين أو الستين لان المجهود فى هذا الجمع كان أكبر مما نتحمل . وفى الوقت نفسه ربما حال هذا الجمع دون العناية بترقية شخصيتنا وتنوير ذهننا ، وهما من القيم البشرية . وكثير من الناس يغمرهم المجتمع بقيمه وأوزانه فلا يرتفعون فوقها . ولذلك تجد أن كل اهتمامهم ينحصر فى شراء سيارة من الطراز الجديد أو يغمرهم الهم والنكد لانهم فقدوا صفقة تجارية . مع أن زيادة ألف جنيه أو نقصها فى حساب البنك لن يضيرهم ولن يزيد سعادتهم أو ينقصها

ومن هنا ذلك الرجل المحموم بالنجاح ينفق كل مصادره الحيوية فى التفوق فى حرفته . ثم يفشل فى عائلته أو مجتمعه ولا يدرى أن النجاح كان يجب أن يكون كليا يشمل العائلة والمجتمع والحرفة

والفراغ . وكثير من الامراض النفسية الفاشية فى أيامنا تعزى الى الاندفاع فى هذه القيم الاجتماعية دون التفكير فى القيم البشرية. وذلك « الرجل الاجوف » الذى تحدث عنه الشاعر اليوت انما هو رجل قد غمره المجتمع بقيمه وأوزانه فنسى كلمة الامبراطور ماركوس أوريليوس حين قال أن أعظم ما يشتاق اليه ويتمناه فى هذه الدنيا كسرة من الخبز مع قطعة من الجبن يأكلها تحت ظل شجرة .

والمحك الذى يفصل بين القيمتين والوزنين أن نسأل ، عند ما نسأل، عن شخص ما : ما هو ؟

فاننا هنا نسأل عن قيمته البشرية . هل هو جميل ، سليم، مثقف ، صادق ، أمين ، سعيد ؟

وحين نسأل عن قيمته الاجتماعية نقول : ما عنده ؟

فنجيب بأن عنده منزلا به أثاث فاخر أوعنده ضيعة ، وسيارة وعشرة آلاف جنيه فى البنك ولقب بك الخ .

والحياة الفنية تقتضينا التمييز بين القيم وأن نجعل للقيمة البشرية المكانة الاولى فى جميع اعتباراتنا سواء فى أنفسنا أم فى غيرنا . والرجل الطيب هوفى النهاية الرجل البشرى وليس هو الرجل الاجتماعى . أى هو الرجل الذى يتعمق ويصل الى الجذور

وعند ما نتأمل الانبياء بل كذلك الفلاسفة والادباء ، نجد أن كل اهتمامهم كان منصرفا الى تغيير المجتمع بوضع القيم البشرية مكان القيم الاجتماعية .

الاستغناء أم الاقتناء

نحن نعيش فى مجتمع « اقتنائى » ننشأ فيه منذ الطفولة على أن هذا لى وهذا لك . وعلى أن أحدنا يسر بأن يكون له أكثر مما للآخر . ثم نشب بعد ذلك فنزداد رغبة فى الاقتناء واندفاعا نحو الامتلاك ، لأن العادة قد أصبحت عاطفة ومزاجا . ونعيش طوال حياتنا ونحن فى تعب ، لأننا لم نقتن كما اقتنى فلان الذى كنا نعرفه أقل ثروة منا . ونعيش بين جيراننا فى مباراة نرقبهم حين تخرج احدى بناتهم فى ثوب زاه ، أو حين نقرأ فى الصحف عن الترقيات والعلاوات ، فنمتلىء حسدا لان هذا الشخص الذى كنا على الدوام نتفوق عليه أو على الاقل نساويه قد ارتفع وارتقت أحواله دوننا .

ونحن ننشد الاقتناء والامتلاك لا لأننا فى حاجة الى زيادة ولكن لان المجتمع « الاقتنائى » الذى نعيش فيه قد غرس فينا هذه العواطف . فأكسبنا هموما شخصية تنزع بنا الى الجهد وتحمل المتاعب كى نتفوق فى الجمع ونستمر فى الزيادة . ونبقى على ذلك طوال حياتنا ، حتى أننا نرى ناسا قد تقدمت بهم السن وأثقلتهم الشيخوخة ومع ذلك يتعبون ويقلقون بشأن مقتنياتهم وعقاراتهم . فهم فى هموم دائمة وحسابات لا تنقطع ، حتى ليتساءل الانسان وهم فى هذه الحال : هل هم يملكون هذه العقارات أم أن هذه العقارات هى التى تملكهم ؟

وأعظم ما يعود من الضرر على هؤلاء ، أن هذه الهموم الشخصية تحول دون الاهتمامات العامة حتى ليقول لك أحدهم أنه لا يملك الوقت كى يقرأ الجريدة ، لأنه مشغول بأعماله التى لا تترك له فراغا .

وقد أصبحت أعباؤنا الخاصة ثقيلة حتى أننا جعلنا الفرار منها سنة . فنحن نصطاف ، لا لأننا نرغب فى تغيير الجو من الحر الى

البرودة ، بل لاننا نحب أن نفرمن هذه الاعباء . فالتغيير هنا نفسى وليس مناخيا . وعندمانتأمل المصطافين فى رأس البر أو الاسكندرية، نجد أنهم ينطلقون من القيود ويحاولون أن يتصلوا بالطبيعة فى بساطة من التكاليف والاعباء تشهد على أنهم كانوا متعبين بماكانوا يقتنون من ملابس غالية مرهقة فى المدن .

والحق أننا عند ما نتأمل معيشتنا فى وسط متمدن ، وما يجلبه علينا هذا الوسط من تكاليف، وما يطالبنا به من مطامع، نجد أننا جميعا فى حال سيئة من القلق النفسى ، مسوقين بأوهام الاقتناء كما لو كنا مسخرين .وهذه الاوهام هى فى نهايتها مصطلحات أى عادات ليست لهاقيمة بشرية ، وهى لا تزيدنا الا أعباء وهموما اذ نستطيع أن نستغنى عنها .. فقد استغنى شبابنا مدة الحرب الاخير مثلا عن الطربوش ، ولم يجدوا سوى الراحة والصحة عند ما تخلصوامن هذا التكليف . وسبق أن استغنت الفتيات أيضا ، قبل الحرب ، عن الجوارب ولم يشعرن الا بالراحة والزيادة فى الصحة بهذا الاستغناء . أجل .. ازداد الجميع صحة لان الاستغناء عن الطربوش والجوارب ، قد زاد فى تعرض الاعضاء لأشعة الشمس ولاثرها الصحى فى تنبيه الجسم

وأعود فأقول ان معظم ما نبذل من مجهودات عظيمة ، بل أحيانا مجهودات مضنية مميتة ، فى الاندفاع نحو الاقتناء انما هو مصطلحات وعادات اجتماعية لاأكثر ، أى ليس لها فى نفوسنا حاجة طبيعية. فحاجاتنا الطبيعية قليلة جدا . وقد قنع غاندى مثلا بأن يعيش بنحو ثلاثة جنيهات أوأربعة فى العام كله . فقد كان يكتفى من اللباس بقطعة من القماش غير مخيطة يتلفع بها ، بينما يحتاج اصغرنا الى عشر قطع كى يغطى بها جسمه كأنهاضمادات الجريح ، أو كأنها خرق ملونة لمهرج على مسرح !

واذا كنا نحن نستبعد أو نستغرب معيشة غاندى ، فليس ذلك لأن غاندى مخطىء ، بل لاننا نعيش فى أسر مصطلحات وعادات اجتماعية قد تغلغلت فى نفوسنا حتى أضحت عقائد وعواطف

والرجل الحكيم هو الذى يعرف كيف يستغنى دون أن تنقص حاجاته الضرورية. ومن هنا قيمة الدعوة الى الحياة البسيطة ، أى الى بساطة العيش . وهذه الدعوة هى نداء قديم يتردد صداه عبر التاريخ منذ آلاف السنين. وكلنا نذكر « ديوجينيس » الاغريقى حين وصف الاسكندر بأنه كان شقيا بما جلب على نفسه حين سأله عما يستطيع أن يؤديه له من مساعدة . فأجاب بأن كل ما يطلبه انما هو أن يتنحى عنه حتى لا يمنع أشعة الشمس عن جسمه. ونحن نقرأ هذه النادرة كأنها نكتة . ولكن لماذا ؟ أليس أمامنا البرهان على أن ديوجينيس كان على حق ؟ وكان سعيدا ببرميله الذى كان ينام فيه ، فى حين كان الاسكندر شقيا بما جلب على نفسه من هموم وأعباء ؟ ألم يعمد الاسكندر الى الانتحار وهو فى الثلاثين ؟ فأى شقاء أكبر من هذا ؟

كان الاسكندر يندفع بروح الاقتناء الى الفتح والحرب . وكان ديوجينيس يندفع بروح الاستغناء الى العيش فى برميل . وكلاهما مسرف . . . ولكن اسراف ديوجينيس أقرب الى الحكمة من اسراف الاسكندر .

وغاندى فى عصرنا يجرى على مذهب الفيلسوف الاغريقى ويجحد مذهب الفاتح المقدونى، وهو حكيم فى هذا السلوك .

وقد كان جان جاك روسو أول من بصر بعبء التكاليف المرهقة التى تفرضها علينا الحضارة . برغم أن حضارة العصر الذى كان يعيش فيه ، هى البساطة والسذاجة بالمقارنة الى ما نعيش نحن

فيه . فقد دعا هو دعوة الريف وتجنب المدينة . ولكن مدينته، حوالى سنة ١٧٧٠ ، كانت قرية هادئة بالمقارنة الى المدن التى نعيش فيها الآن . فلم يكن فى مدينته ترام أو سيارة أو راديو، ولم تكن مضار المباراة وما تجلب من حسد وهزيمة وقلق جزءا من مائة مما يكابد أبناء المدن فى هذه الايام ، وقد ترك بعده « ثوور » الامريكى المدينة الامريكية وعاش فى الغابة . وترك ادوارد كاربنتر المدينة الانجليزية وعاش فى الريف . وفعل كذلك تولستوى وغاندى .

وليس هؤلاء شاذين ، لأننا حين نقارن بين حياتنا وحياتهم من حيث القيم البشرية وسلام النفس والفراغ للتأمل والراحة نجد أن الحكمة كانت فى جانبهم والجنون أو الحماقة فى جانبنا

فقد عاشوا بالاستغناء ، فى حين نعيش نحن بالاقتناء . وامتازوا بأنهم نفضوا عن نفوسهم وأجسامهم وضمائرهم جبالا من الواجبات والاثقال التى ننوء بها ونزعم أننا بفضلها سعداء مع أن الحقيقة أننا مسخرون فى الجمع والاقتناء ، ثم فى زيادة الجمع والاقتناء . وسنظل على هذا حتى نموت بالنقطة أو السكتة مجهودين مرهقين .

وأسوأ ما فى هذه الحياة التى نعيشها ونحن نعدو وراء المطامع وكأننا نجرى فى سباق ، أننا لا نعرف ماذا نقتنى ولمن نقتنى ؟ ثم هذا العدو فى هذا السباق لا يتيح لنا فرصة الوقوف كى نتأمل ونفكر . والواقع أن غريزة الاقتناء تدفعنا مسخرين فلا يلتمع لنا ذكاء ولا يتردد فى رؤوسنا خاطر ولا نتسائل : لماذا كل هذا ؟

نعيش لنحسب أم نعيش لنحيى

غاية الحياة هى الحياة. وليست غايتها أن نكون أثرياء أو أصحاء أو علماء أو سعداء . لأننا اذا كنا نطلب الثراء أو الصحة أو العلم أو السعادة فانما لأن كل واحد من هذه الاشياء يؤدى فى النهاية الى الحياة المثلى التى نتمناها .

فيجب لهذا السبب ألا نخطىء الهدف . وهو أن نحيا لاجل الحياة . واذا نحن جعلنا هذا الهدف نصب عقولنا فاننا لن ننحرف . اذ نجد أنه على الدوام يصحح ويقوم انحرافاتنا .

وأعظم ما نقع فيه من انحراف بل اعوجاج هو أن المجتمع يؤثر فينا بأوزانه وقيمه فيحملنا على أن ننسى أن هدف الحياة هو الحياة . حتى أننا نجد كثرة الناس ، بل ربما كلهم ، أى كلنا ، ننتهى الى عادات فكرية ونفسيه لو أنها امتحنت فى نزاهة وذكاء لكانت أقرب الى الجنون والشذوذ منها الى التعقل السوى .

وأسوأ هذه العادات ، عند الطبقة المتوسطة والثرية ، هى أن نحيل الحياة الى حساب . ذلك أن أحدنا ينسى أنه يجب أن يعيش فيستمتع بحياته ذكاء وصحة واجتماعا ومعرفة وحكمة . ينسى كل هذا ثم يرصد وقته وجهده فى الحساب . ما هى زيادة دخله هذا العام على دخله فى العام السابق ؟ وماذا يستطيع أن يشترى بما ادخر مما يزيد هذا الدخل ؟ الخ

وأحيانا تستحيل هذه العادة الى جنون . فلا يشتغل الرأس الا بها ولا يتحرك النشاط الا لأجلها . حتى أننا لنرثى لصاحبها اذ نجد أنه أسير قد استرقه الجمع والاقتناء فلا يعرف لذة الطعام أو الشراب أو التنزه أو الاجتماع بالاصدقاء . وقد يسأل أحدنا عند ما يتأمل هذه الشخصية ويقارنها بشخصية أخرى كثيرا ما يحتقرها مثل شخصية المستهتر فى الشراب أو النساء : أيهما أفضل ؟

وليس هـذا السؤال لان الاستهتار حسن . ولكن لان قصر الحياة على الحساب بالجمع والطرح والزيادة والنقصان فى الاقتنـاء أسوأ من أى استهتار . لان أقل ما يقال فى المقارنة هنا أن المستهتر مستمتع ولكنه مبالغ مسرف فى الاستمتاع الى حد الضرر . ولكن هذا الحاسب لا يستمتع بتاتا الا كما يستمتع النيوروزى أى المريض النفسى بعادة تملكته واستبدت به وهى بعيدة عن العقل بل متمردة عليه .

ونحن فى عصرنا الحاضر نحتاج الى كاتب مثل د.هـ.لورنس كى يبين لنا أن واجبنا الاول فى الدنيا هو أن نعيش . فقد ألف هـذا الكاتب قصة « عاشق الليدى شاترلى » وأسرف فى دعـوته الى الاستمتاع الجنسى باعتبار أنه أهم من الاعتبارات الاجتماعية التى تنكر علينا ملذاتنا وتشغلنا بألوان أخرى من النشاط الذى ننحرف ونزيغ به عن هدف الحياة وهو أن نحيا ونستمتع . وليس شك انه أسرف بل انه وقع فيما أراد أن يحذرنا منه . اذ هو جعـل الاستهتار الجنسى هدفا ، وكأنه اعتقد أن اللذة الجنسية هى كل ما فى الحياة . وهذا خطأ فاضح .

وصحيح أن الاستهتار الجنسى، فى القيم والاوزان الصحيحة ، خير من قضاء العمر فى الحساب لاقتناء المـال وزيادته . ولكن الاستهتار على كل حال اسراف . ثم ان اللذة الجنسية جـزء من الحياة وليست الحياة جزءا من اللذة الجنسية . فاذا نحن تحرينـا الحياة المثلى فاننا بلا شك لا نهمل الملذات الجنسية ولكننا أيضا نضع هذه الملذات فى مكانها فلا تتجاوزه وتطغى على حياتنا كلها . اذ أن هناك ملذات أخرى تحتاج اليهـا الحياة المليئة الحافلة السامية مثل الصحة والمعرفة والصداقة والذكاء والحكمة .

واسراف لورنس فى الاكبار من شأن اللذة الجنسية انما هو مبالغة

يرمى بها الى تأكيد الظاهرة الجنونية الحاضرة فى اندفاع الناس الى جمع المال وقضاء العمر فى الحساب . حتى أننا لنجد رجلا فى الستين أو فى السبعين ليس له من هم سوى الدفاتر يراجعها ، والاهتمام بدخله والتفكير فى شراء عقار جديد ، أو نحو ذلك . مع أن كل ما بقى له من العمر قد لا يتجاوز سنة أو سنتين هو أحوج فيهما الى أن يعرف ما جهل أو بعض ما جهل قبل أن يغادر هذه الدنيا .

عرفت سيدة كانت طريحة الفراش يعرف قلبها دقات الموت قبل وقوعه بخمسة أيام . ومع ذلك كانت تتقلب فى قلق لأن حساب المهندس الذى وكلت اليه بناء منزل لها لم يطابق حسابها . وبدلا من أن تودع الدنيا فى تأمل وفلسفة كانت لذلك تودعها فى حساب القرش والمليم ..

ووطأة المجتمع علينا هى التى تسوقنا الى أن نستبدل الحساب بالحياة . والى أن نسخر أنفسنا للجمع والاقتناء دون الاستمتاع بالعيش . وعادات المجتمع هذه ترسخ فى نفوسنا بحيث نعيش فى هذا الحساب كما لو كنا نملا أو جرادا ننشط نشاطا غريزيا لا نعرف غايته .

والرجل الذى ارتفع الى أن صار يجعل من حياته فنا يجب من وقت لآخر أن يسأل نفسه : هل أنا أعيش للحياة أم أن قيم المجتمع وأوزانه قد غمرتنى وسخرتنى حتى صرت آلة جمع وطرح للحساب أى لزيادة المال والدخل فقط ؟

ويجب على كل منا أن يذكر نصيحة المسيح لنا وهى أن نعيش كالاطفال أى أن ننزل على القيم البشرية الساذجة نحب الجمال والاقتحام ونستطلع الدنيا كما يستطلعها الطفل . وهو الذى أخبرنا بأن زهور الحقول أجمل مما اقتناه قصر سليمان الحكيم .

العمل والفراغ

كى يكون نجاحنا فى الحياة كليا شاملا وليس جزئيا خاصا يجب أن نواجه ونحل أربع مشكلات أصلية هى :

١ ـ مشكلة العمل الذى نرتزق به .

٢ ـ مشكلة الفراغ الذى نقضيه مختارين

٣ ـ مشكلة الزواج والعائلة والاولاد

٤ ـ مشكلة المجتمع الذى نعيش فيه وتنظيم علاقاتنا المختلفة به

والاهمال فى واحدة من هذه المشكلات يتعسنا ويجعلنا فى خصومة دائمة اما مع غيرنا وامامع أنفسنا بحيث نعيش فى غير يسر كأننا نكافح تيارا بلا هدف يقتضى المكافحة . والقارىء لهذا الكتاب يعرف أننا نعزف لحنا يتكرر هو أن النجاح يجب ألا يقتصر على ناحية أو جملة نواح من الحياة وانما يجب أن يكون قبل كل شىء نجاحا فى الحياة كلها .

ومشكلة العمل الذى نرتزق به تبرز فى عصرنا بروزا واضحا لان العلم لم يستخدم فى الانتاج الى الحد الذى تتوافر فيه حاجات الناس ، ولو استخدم لانتقلت بؤرة الاهتمام من الارتزاق بالعمل الى الانتفاع بالفراغ بل كذلك كانت بؤرة الاهتمام فى المدارس والجامعات تنتقل هذا الانتقال .

والى أن نصل الى هذه الحال التى نرجوها يجب أن نجعل الاهتمام بالعمل الارتزاقى فى مقدمة شئوننا التى نتدرب لها ونثابر على تفهم تفاصيلها . وأعظم ما يجب أن نهتم به هنا هو اختيار العمل بحيث يلائم ميولنا وكفاءاتنا معا ، لأن معظم التعس الذى يعانيه الناس من أعمالهم يعود الى أنهم لم يختاروها بل قضت المصادفات والظروف بأن « يقعوا » فيها وأجبرتهم حاجات العيش على ممارستها كارهين أو متبرمين . وهذه الحال تجعلهم يتبرمون

بالحياة كلها أى يكرهون المنزل والنادى والاصدقاء والكتب لأنهم يكرهون أعمالهم ، كأن حياتهم قدغشيت بغشاء من التبرم والسخط

وعلى هذا نقول أن اختيار العمل الملائم الذى نحبه ونستطيعه هو نصف الانتصار فى معركة الارتزاق بل ربما أكثر ، لأننا بعد ذلك ننشط الى الحذق والمثابرة والدرس . ونحن فى العادة لا نشرع في الاختيار قبل السادسة عشرة من العمر ، ولذلك نحتاج قبل ذلك الى الارشاد لأننا نجهل ميولنا وكفاءاتنا ونحتاج الى من يحللها ويخبرنا عن حقيقتها .

وكثير من التخلف الذى يصيب الموظف يعود الى كراهته لعمله لأنه أساء فى اختياره فهو يتهاون ويتثاءب ويكره رئيسه أو يعتقد أنه يرهقه بالواجبات . بل أحيانا يحس صداعا بسبب هذه الكراهة وهو يتعلل بهذا الصداع لطلب الاجازات أو للزيادة فى التهاون والتكاسل الى أن تسوء العلاقات بينه وبين رؤسائه

وعلاج هذه الحال ، اذا كانت الوقاية لم تتخذ من قبل ، هو استخدام الفراغ بحيث يعوض من سأم العمل . وذلك بأن نمارس هواية ما تشغلنا وتعوضنا من النفور من العمل وتعيد الينا اتزاننا ويجب لهذا السبب أن يكون لكل منا هواية بل هوايات تتوافر بها اهتماماتنا ، وعندى أن أعظم هذه الهوايات هو القراءة وتعود الدرس ، لانها هى الهواية الباقية الى سن الشيخوخة وهى فى ظاهرها هواية واحدة ولكنها فى صميمها جملة هوايات ، لان الذى يعشق الدراسة يجد نفسه مشغولا بألوان مختلفة من الاهتمامات يقرأ الجريدة والمجلة ويناقش السياسة وقد يكافح لمذهب فيها . كما يقرأ الكتب ويقتنيها ويضع المشروعات لدراسات جديدة فيتجدد بذلك شباب ذهنه وتتسع آفاقه العملية والادبية . ومثل هذا الشخص لن يسأم فراغه ولن يقضيه ذاهلا ف

غيبوبة نفسية على كراسى المقاهى ولن يقع فى العادات السيئة كالتهالك على التدخين أو الشراب

والرجل الموفق هو الذى يجعل هوايته مرتزقة . ولكن يجب أن نعترف أن هؤلاء قليلون فى مجتمعنا . حتى الاديب الذى يرتزق بقلمه لا يكتب على الدوام ما يهوى . لان الضغط الاقتصادى يحمله فى كثير من الاحيان على ألوان من الانتاج الكمى ، لا الكيفى ، يهدف منه الى الكسب لا الى الفن

ولهذا نحتاج جميعنا الى أن يمارس كل منا هواية ما يحل بها مشكلة الفراغ ، ومتى حللنا هذه المشكلة فان العمل الارتزاقى يسهل علينا فلا يكون ذلك المضض الذى نراه فى كثير من الموظفين وهم الى مكاتبهم يتجهمون لأوراقهم ورؤسائهم .

العائلة والمجتمع

النجاح العائلي أكبر من النجاح الحرفى . ويجب أن يكون كذلك لأن القيم العائلية بشرية فى حين أن القيم الحرفية اجتماعية . والعائلة هى زوجة وأولاد وبيت . والرجل الذى وفق الى اختيار زوجته واستمتع بحبه لها وعنايتها به وأعقب أولادا وتعب لهم حتى نموا وأينعوا أمام عينيه ، مثل هذا الرجل قد حظى بنصيب عظيم من متع الحياة .

واختيار الزوجة هو ، مثل اختيار العمل ، نصف المعركة . لأننا اذا لم نحسن الاختيار تعرضنا لألوان من التعس كنا نستطيع تجنبها . وأعظم ما يتيح لنا الاختيار الحسن أن نطيل مدة الخطبة حتى نعرف بالاختلاط شخصية الفتاة التى سنتزوجها . وواضح ان الخطيبين يحرصان مدة الخطبة على أن يظهر كل منهما للآخر بأحسن مظاهره . ولكن حتى مع هذا الحرص يستطيع كل منهما ان يفطن الى الاتجاهات والميول فى الآخر .

وقد يكون قضاء شهر فى أحد المصايف خير فرصة يتعرف فيها الخطيب الى خطيبته لما فى الاصطياف من التبذل ورفع التكاليف التى تستر وتخفى حقائق الشخصية .

ويجب ان يتجنب كل منهما اغراء الفتنة . فقد يفتتن الشاب بنغمة الصوت أو زرقة العينين أو تورد الوجنتين فى خطيبته . ثم ينخدع بهذه الصفات فى الاختيار السيىء . وخير ما يكفل الاختيار الحسن ان يسأل الشاب نفسه : كيف نكون معا ، أنا وهذه الفتاة ، فى بيت وحدنا بعد خمس سنوات ثم بعد عشر سنوات ؟ كيف نتحدث وكيف يعاشر أحدنا الآخر وكيف يكون أولادنا معنا ؟

وخير للخطيب أن يختار خطيبته فى تعقل ودراية من أن ينزلق فى شهوة الاغراء الجنسى . والحب الضعيف مع الامل فى

نموه في المستقبل يفضل الحب العظيم الذى لن ينمو . ويجب هنا ألا ننسى ان الحب هو غير الافتتان . الاول عقلى . والثاني غريزى . بل هما أحيانا متناقضان بحيث اذا زاد حنان الحب ضعف عدوان الشهوة .

ويجب أن يكون للقيم والاوزان البشرية التفضيل على القيم والاوزان الاجتماعية فى اختيار الزوجة . فالجمال والصحة والذكاء قيم بشرية ويجب ان تفضل لذلك على الثراء والمكانة والثقافة لان هذه قيم اجتماعية . ولكن من الحسن ألا يختار الشاب فتاة من غير طبقته الاجتماعية أو دون ثقافته . لان التفاوت هنا بعنى تفاوتا فى الاذواق والعادات والاتجاهات . واذا كان الاختلاف صغيرا فان النتائج لن تكون خطيرة . ولكنها تفدح اذا كان الاختلاف كبيرا . وفى بلادنا ، حيث تتجه العناية الى تربية الشبار دون الفتيات فى أغلب الحالات ، نجد هذا الاختلاف واضحا . ولذلك لابد من التسامح ولكن مع النصح للزوج بأن يعنى بتربية زوجته وتنبيهها الى ترقية شخصيتها وزيادة ثقافتها .

والتوفيق بين الزوجين لايتأتى مع الحماة أو الحمى من أية الناحيتين ولذلك يجب ان يعيش الزوجان مستقلين فى بيت منفصل عن الآباء والامهات . فاذا لم يكن هذا ممكنا للظروف الاقتصادية مثلا فيجب على الاقل ان تعرف هذه الحقيقة وان يؤسس البيت مع اعتبار هذه « الضرورة » التى تواجه كما لو كانت صعوبة قهرية لا مفرمنها . وبهذا الاعتبار يمكن أن تواجه المواجهة السليمة وان توزن الوزن الصحيح

وكل ماقلناه عن الشاب ينطبق أيضا على الفتاة .

ويجب على الزوجين ان يجعلا من البيت متحفا وليس مأوى فقط . فاذا جاء الاولاد صار معهدا حرا للجميع أباء وأولادا

فلا سيد ولا مسود . ويجب ان تقتنى التحف الفاخرة وتهيأ الغرف بأغلى الاثاث حتى يحب البيت الزوج ويصير مرتكز نشاطه واهتمامه . كما يجب ان يكون البيت مضيفة راقية يجد فيه الزائرون متعا مختلفة من الرسوم الفنية والموسيقا العالية الى السمر المنير والمناقشة المربية .

والنجاح فى المجتمع يأتى بعد النجاح فى العائلة وهو يحتاج الى أن ندرس المجتمع بتتبع السياسة العامة ، عالمية وقطرية ، والى أن نطابق بين مصالحنا ومصالحه حتى لا يكون تنافر ، هذا التنافر الذى يبلغ القمة عند المجرمين ، لان المجرم يتصرف وهو على غير وفاق مع المجتمع ويصل الى غايته وهو على تنافر مع الاساليب الاجتماعية .

والنجاح الاجتماعى يقتضى العناية بالاصدقاء ورعايتهم وتجنب التفريط فى صداقتهم . وقد يكون الاهتداء الى صديق وملازمته أمتع متعة فى الحياة .

والمجتمع يحتاج الى المزاج الانبساطى أى مزاج ذلك الشخص الذى يحب الاختلاط ويغشى الاندية والمطاعم والمسارح والمصايف ويميل الى الزيارات

وصاحب المزاج الانطوائي ينفر من هذه الانبساطية ، ولكن عليه ان يتمرن على ممارستها الى حد ما . كما يجب على صاحب المزاج الانبساطى ان يتمرن على ممارسة الخلوة والقراءة والدراسة والتفكير الى حد ما .

والخلاصة انه يجب على كل شاب أو شابة ان يسأل نفسه : هل أنا نجحت فى حل هذه المشكلات الاربع : الحرفة والفراغ والعائلة والمجتمع ؟ والى أى حد بلغ نجاحى ؟

الحياة والحب

فرق ما بين الشاب قد دخل الحب فى حياته ففرح وطرب باللقاء كما لهث وتعب بالحرمان وبين الرجل أغلق على قلبه فلم يعرف لذة اللقاء ولا لوعة الحرمان . أجل .. انه فرق مابين الحياة والموت ، مابين النشاط المنعش والركود الآسن ..

والحب هو شهوة الجسم ، كما هو تعقل النفس .. وهو ما دام على مستوى الشهوة ، يتركنا فى ذهول حيوانى . أما حين يخرج من الشهوة الى التعقل .. الى احساس النفس ، فاننا نجد فيه المعانى العميقة والآفاق الواسعة ..

اعتبر مثلا هذه الظاهرة . فاننا عندما نشتهى المرأة نأخذ منها ونستخدمها . أما حين نحبها فاننا نعطيها ونخدمها .

ويجب لذلك ان نتسامى بالشهوة الى الحب . وليس معنى هذا التسامى ان ننسى الشهوة ولكنما ننقلها من الذهول الحيوانى الى التعقل البشرى ، من الاخذ والانتهاب الى الاعطاء والسخاء.

والحب عند اللقاء سعادة سامية . ثم هو عند الحرمان لوعة وخلوة وتأمل ..

بل ان الحب ، على ما نجد فيه من طرب فى اللقاء ، قد يكون اسمى وقت الحرمان . لانه فى اللقاء نجد ذبذبة الجسم فقط . أما وقت الحرمان فاننا نجد الذكرى والخيال ، فنحيا فى طرب الذبذبة النفسية . وعندئذ يكون الشعر والفن ، بل تكون الحكمة

والعلاقة بين الحب والفن ، بين الغرام والشعر ، أكبر مما نظن . بل أنها لتكاد تكون مطابقة اذ نجد فيها جميعا غلوا وحماسة واهتياجا . ولم يكن لذلك عجبا أن يغدو الحب موضوع الادب والشعر عند جميع الامم الممتدنة لل الامم البدائية ايضا . لانها جميعا ارتفاعات نفسية متشابهة . واشعار الحب تجرى على السنة العامة كما لو كانت أشعار المجد كما أن الرسوم التاريخية تتناول

قصص الحب ، فى قداسة الاحساس الفنى ، كما تتناول قصص الدين او الابطال من القواد والعظماء .

ونحن نعرف من كلمة التضحية أنها وصف الابطال ، ولكننا ننسى أن أعظم المضحين هم المحبون . وكثيرا ما نقرأ فى الصحف عن حوادث البطولة عند أفراد من العامة وقت الحب . فان كلا من المحبين قد يضحى بنفسه للآخر . وهو انما يرتفع الى هذا الاحساس النبيل لان غلواء الحب ، مثل غلواء الفن ، تحرك خياله وتستنهض شرفه ونبله حتى تحيله من شاب عادى يحترف النجارة أو البقالة الى بطل ..

وليس الحب مع ذلك حقا لكل انسان . لا . انما هو المكافأة التي يستحقها الانسان الصالح للبقاء . وذلك عندما تكون فيه ميزات فى الجسم والعقل تجذب اليه الجنس الآخر فى اعجاب واشتهاء ، والاعجاب والاشتهاء هنا هما صوت الطبيعة للنقاء ، تعبر عنهما المرأة بالرضى والانجذاب .

ولذلك يجب على كل انسان ، قد خاب فى حبه ، أن يسأل عن الاسباب لهذه الخيبة . اذهى خيبة الحياة التى قد ترجع الى نقص فى كفاءاته الفطرية والاجتماعية . كما ان من حق كل انسان أن تتاح له الفرصة بأن يسعى ليسعد بالحب ، وأن يعثر فى أرجاء دنياه وحياته على هذا الشخص الآخر الذى ينتظره لاتمام سعادته .

ويجب أن يسبق الحب الذى يسمو على الشهوة ، الزواج . وصحيح أن هناك حبا ينشأ بعد الزواج حين لاتكون الفرص قد توافرت للاختيار قبل الزواج . ولكن هذا نادر لايضمن . ولذلك من حق كل شاب وفتاة ألا يقدم أحدهما على الزواج **الا بعد** الاحساس الصحيح بأن هذا الشخص الآخر المنتظر جدير بالاعجاب والحب .

الجمال والحب والفن

فى مثل هذا الشهر من العام الماضى كنت فى باريس وكنت فى مقهى اتصفح جريدة الصباح وقعدت الى جوارى سيدة فرنسية ومعها ابنها وكان صبيا فى نحو العاشرة . وما هو ان استقرت حتى أخرجت بضعة فرنكات وأرسلته كى يشترى وردة

وعاد الصبى بعد دقائق ومعه وردة زاهية . وتأملتها السيدة كأنها تستمتع بزهوتها . ثم أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ووضعت الوردة على شعرها

وتأملتها انا فى اعجاب . فقد جللت الوردة سحنتها بنور من الحياة وتألق وجهها جمالا واكتست العينان فتنة والوجنتان حمرة

وعدت الى نفسى اتأمل وافكر فى هذا التأنق الذى يتسم به الباريسيون رجالا ونساء . وهو تأنق يشمل كل شىء فهو فى الهندام كما هو على المائدة . بل كما هو فى اللغة والايماءة . وهو فى المدينة ، ميادينها وشوارعها كما هو فى البيت

انهم يتسامون الى الجمال فى كل مادق وجل .

وليس فى الدنيا مدينة أحفل بالتماثيل العظيمة من باريس . وهى تماثيل تخلد ذكرى العظماء احيانا . ولكنها تمثل احيانا الفكرة او الارادة او الامل او العظمة . هى أفكار تعبر عنها الاحجار

وليس فى الدنيا بيت يجمع بين الفن والخدمة ، بين التأنق والضرورة ، كما يجمع هذا البيت الفرنسى الذى تعنى ربته بالزهر يوضع على المائدة كما تعنى باناء الحساء المزخرف

واحيانا اتأمل جمال الفتاة الفرنسية واحاول ان احلل تفاصيله واجزاءه . وكثيرا ما انتهى الى الاستنتاج بأنه ظرف

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

واناقة اكثر منه جمالا او ملاحة . فهو احيانا هندام انيق كأن مهندسا قد رسمه بالالوان وهدف منه الى اخراج فراشة زاهية تظن انها لم تخلق الا لترشف الرحيق .

ثم هذا التأنق ينتقل الى اللغة فليس هناك استهتار في التعبير او اهمال في اخراج الفكرة ، معينة مبينة ، لايشوب معانيها غموض او شك . وكثيرا مارأيت محدثي يتعنى ويتعمل كي يعبر بالكلمة والجملة عما يعنى في وضوح . والمثل الفرنسي يقول : « ماليس واضحا ليس فرنسيا » . ولم يؤلف هذا المثل عبثا . وهذا الوضوح هو في النهاية تأنق .

ولقد رأيت نساء ورجالا فوق الستين في باريس . واقسم اني وجدت في وجوههم من روعة الجمال ما لعله يفوق جمال الشبان والفتيات . فانهم يتخيرون ملابسهم في عناية . وتعنى المرأة بتصفيف شعرها كما يعنى الرجل بقص لحيته . وكلاهما يبدو كما لو كان قد صاغ وجهه فنان عظيم .

هذا التأنق هو فن جميل يجب أن نتعلمه ونمارسه ، وانما نمارسه بأن نكون ادباء وشعراء . والشاب في حبه للفتاة ، والفتاة في اعجابها بالشاب ، يجدان معاني الشعر والادب ، كل منهما في الآخر . ولم تكن مصادفة أن يكون الحب ، عند جميع الامم المتمدينة ، موضوع الادب والفن ولكنه لم يكن كذلك قصدا ، وانما يلتصق الحب بالفن أو ينبع الفن من الحب ، لان الحماسة الجنسية ، عندما تحتبس تنتهي الى منافذ من الحماسة الفنية بل احيانا تنتهي الى ألوان من الحماسة الروحية .

فنحن نفهم الفن ونعلله في مجنون ليلى أو قيس لبنى . وهو واضح لايحتاج الى تفسير . لان تأمل الجمال عندهما قد أحدث أنغاما فنية في النفس نطق بها الحب اشعارا واستحال فنانا ولكن يجب الا ننسى ان اعظم الرهبان كانوا أيضا شعراء . وان

الكنيسة الكاثوليكيـــة ، التى لايزال كهنتها من الرهبان ، هى أعظم المؤسسات الفنية فى العالم، بل يجب ألا ننسى أن الحب والفن قد اندغما اندغاما مضللا أحيانا ،ومنيرا احيانا ، فى ابن الفارض وابن عربى وسائر المتزهدين ،مسيحيين ومسلمين ٠

ولكن هذا الحب عند هـــؤلاء الفنانين وعند هؤلاء الرهبـــان والمتدينين ، كان مكظوما قـد احتبس. ثم تجمع بخاره فانفجر أدبا وفنا ٠ كما يحتبس الماء وقت الغليان فلا يخرج ماء اذ يستحيل بخارا .. غازا ..

ولو ان الحب وجـــد هدفه عندهم بلا عائق وبلا كظم ، لما تسامى الى البخار :٠ الى الفـــن والادب ٠

ولا يختلف الفنـــان ، وقت الحماسة الفنية ، عن الحيـوان وقت الحماسة الجنسية الا مـن حيث ان الاول قد سما بالحب الى مستوى التعقل والوجدان ٠ وبقى الثـانى على مستوى الشـهوة والغريزة ٠

واعظم مايمتاز به الادب والفن هو الغلو ٠٠ هذا الغلو الذى هو الميزة الاولى للطـرب الجنسى ٠ ولذلك نحن نجد فى طرب المعانقة نوعا من طرب الفن ، ونتحـدث عنه فى غلو الشعر والادب ٠

يجب على المجتمع ان يبيـــح الحب للشبان والفتيـــات ، لانه حقهم الطبيعى ٠ ولكن يجب على هـــؤلاء الا يستبيحـــوا الحب ويرتخصوه ٠ اذ هو عند الارتخاص شهوة اللحم فقط دون شهـــوة الذهن ، وذبذبة الجسم دون ذبذبة النفس ٠

ولعل أسعد أوقات الحب هى تلك الساعات التى نبتعد فيهـــا عن الحبيب حين نختلى ونتأمـل ونتذكر ٠ فاننا هنـا نرتفع الى الشعر والفن والفلسفة ٠٠ نرتفع فوق انفسنا ٠

والشاب الذى يهدف الى الجمال والحب والفن يحيا الحياة الفنية

ويسلك السلوك الكمالى . وما أجمل ما قاله ثورو الكاتب الامريكى: «كل انسان يبنى معبدا هو جسمه ، وهو يتعبد فيه على أسلوبه الخاص ، وهو لن يجد مايعوضه من هذا المعبد مهما دق ونحت فى المرمر ، ونحن جميعا مثالون ورسامون ومادتنا هى لحمنا ودمنا وعظمنا . وعواطفنا النبيلة تكسب هذا التمثال الذى نصنعه من انفسنا جمالا وروعة ، كما ان عواطفنا الخسيسة تكسبه حيوانية وشهوانية »

ما أجمل هذه الكلمات وما أجمل هذه الفكرة التى تعبر عنها ان أفكارنا ، وعواطفنا ، واحساساتنا ، كل هذه تصوغ من كل منا شخصية جميلة اودميمة ، فاذا فكرنا فى القبح عم كياننا قبح له خطوط بارزة فى الوجه والجسم . واذا فكرنا فى الجمال نطقت ملامح وجوهنا وتقاسيم أجسامنا بالجمال .

ولن نفكر فى الجمال الا اذا أحببنا . ولن نحسن هذا الحب الا اذا كنا شعراء وادباء وفنانين

تحرير الزواج

يجب أن يكون الزواج حرا من اعتبارات المال ، والجهاز ، ومكانة الاب العالية التى يمكن استغلالها

وأساس الزواج السعيد هو الحب ، الحب الذى لاينبنى على الشهوة وجمال الجسم ولكن على التعقل

وجمال الجسم الذى يغرى ويجذب ضرورى . لاشك فى ذلك . ولكن اذا حرم الزواج التعقل فانه ينتهى الى الارتطام بالصخر .

وليس التعقل ان نحسب القيم العرفية الاجتماعية ، المال الذى تملكه الفتاة ، أو الجهاز الذى سيقدمه أبواها ، أو المكانة الاجتماعية للأب . لأن كل هذه الاشياء الى الزوال . ويبقى بعدها عقل هذه الفتاة التى سنتزوجها وطاقتها الوراثية التى سيرثها أبناؤنا منها وأخيرا جسمها وقامتها وكلاهما سيورث فى الابناء .

وقد تعودنا الاهتمام بالجهاز وصار التفاضل بين عروس وعروس يقدر بقيمة الجهاز . وصار هذا عرفا . حتى لو أن أحد الآباء رفض تجهيز ابنته لكان هذا الرفض مدعاة لرفض الزواج . وهذا مايضحك منه الاوربيون المتمدنون

والاصل لهذه الحال عندنا اننا ، بتقاليدنا الماضية ، قد ألغينا الحب بين الشبان والفتيات . وأقمنا حجابا على الفتاة حتى لايراها الناس فضلا عن خطيبها . وكان الزواج يجرى هكذا فى الخفاء والظلام . يعتمد الشاب على شهادة والدته أو أخته ولايرى وجه عروسه الا بعد أن يدخل عليها

وقد الغينا نحن ، بما حصلنا عليه من التمدن ، هذه التقاليد . وصار الخطيب يقعد الى خطيبته ويتحدث اليها وقد يخرج معها بصحبة أخيها أو أمها . ولكن يجرى كل هذا فى تحفظ ، فى جمود

ومعنى هذا اننا لانتزوج عن حب ، عن غرام يكتسح ويسكر ، ويجعلنا ننسى كل شيء الا هذا الشخص الذى سنرتبط به ونعيش معه نحو أربعين أو خمسين سنة

ولقاء هذه الحال ، لقاء هذا الانتفاء للحب ، نطلب مايعوضنا منه وهو الجهاز أو المال أو مكانة الاب . وهذا هو مايضحك منه الاوربيون الذين يتزوجون عن حب وغرام

وشهور الخطبة عند الاوربيين هى سعادة ، هى ارتفاع فوق السحب ، هى جمال وفن وفتنة، هى خطر ومغامرة وانتظار ومؤامرة ، هى تربية لكل من الخطيبين تستنبط من كل منها أجمل الصفات وأحب الميزات . هى مجهود يبذلانه كى يثبت كل منهما انه ليس فى الدنيا أجمل منه أو أعقل منه . وليس جميلا بنا ان نحرم شبابنا وفتياتنا هذه السعادة ، هذه التربية

ويمتاز الاوربيون علينا بأنهم يتعلمون الرقص ويجدون فيه تدريبا على الحب وتربية للغرائز . وكلمة الرقص أعريقية وهى مشتقة من كلمة « أوركستر » التى تعنى الفرقة الموسيقية . ولذلك كان ولا يزال فن الرقص أجنبيا بعيدا عن الامم العربية . وماعرفته هذه الامم من هذا الفن انما كان مقصورا على الأماء أى الجوارى اللائى كن يشترين بالنقد . وكانت الامة تتعلم الرقص كى تثير فى مولاها الغرائز الجنسية لا أكثر . وورثنا نحن هذه الحركات الشهوانية حتى اننا رأينا من كرامتنا عقب نهضتنا فى ١٩١٩ أن نلغى الرقص كله . وكان هذا حسنا

ولكن الرقص الاوربى ليس كذلك . فانه فن عظيم رائع

تذكر أيها القارىء أن الراقصة الاوربية تنظر الى أعلى وهى ترقص . أجل أنها تسمو

ولكن الراقصة المصرية كانت ولا تزال تنظر الى أسفل . أجل أنها تسفل

ومن هنا الرأى الحسن عن الرقص فى أوربا والرأى السيىء عنه فى مصر

وكثيرا ما يلتبس على القارىء، وخاصة اذا لم يكن قد اختلط بالاوربيين ، معنى الرقص . حتى انه حين يجد كاتبا مثلى يدعو اليه تمثل فى ذهنه صورة الراقصة البغى التي تنظر الي كفليها وبطنها وساقيها وتحرك كل هذه الاعضاء وهى ترقص . فى حين انى حين أكتب وأطرى الرقص انما أذكر الراقصة الاوربية التى تنظر الى السماء وتنشد الاشعار بحركاتها وايماءاتها

والاختلاط بين الجنسين فى المجتمع والمدرسة والجامعة ضرورى . وهو تدريب حسن للحب. بل تدريب ضرورى. لأن الشاب يحتاج الى تسديد الغريزة الجنسية حتى لاتنحرف . ولذلك يجب ان يبقى على الدوام على رفقة مع الفتيات . أما اذا انقطعت الرفقة بين الشبان والفتيات فان الغريزة الجنسية تختل وتنحرف الى شذوذات خطيرة بل خطرة. وهذا هو ماوقع بالفعل عند الامم العربية وفى الهند وكثير من الامم التى مارست الحجاب

يجب أن يكون زواجنا حرا من اعتبارات المال والجهاز والمكانة الاجتماعية

الاختلاط قبل الزواج

كلنا يمدح المعرفة ويؤثر الرجل العارف المجرب على الرجل الجاهل الغمر . الا فى الزواج . فاننا أحيانا نؤثر الجهل على المعرفة . وفى هذا أصل للكوارث الزوجية العديدة

فهناك من الشبان الحمقى من يقولون بأن الفتاة المتعلمة لا تصلح للزواج وان الفتاة الجاهلة خير منها . وهم بهذا القول يخشون الذكاء المدرب بالتعليم فى الزوجة ويخشون نقصهم الذى تكشفه الزوجة المتعلمة

وهناك من الشبان الحمقى أيضا من يكرهون الزواج من الفتاة التى اختلطت بالمجتمع فعملت مثلا معلمة أو سكرتيرة أو بائعة فى متجر أو عاملة فى مصنع . لأن هذا الاختلاط قد جعلها تعرف بعض الشبان أو تتحدث اليهم

وهذا النظر الشرقى للمرأة لا يختلف كثيرا عن نظر الصينيين لها قبل مائة سنة حين كانوا يضعون قدميها فى أحذية من الخشب والحديد حتى تعطل عن المشى والسعى وتبقى للبيت والسرير . وتنقل الى زوجها محمولة كما تحمل التحف والطرف من الاثاث

ومجتمعنا الحاضر ، هذا المجتمع غير الاجتماعى ، لا يربينا سواء أكنا رجالا أم نساء . لأنه يفصل بين الجنسين . وكثيرا ما يؤدى هذا الفصل الى الشذوذ الجنسى عند الرجل والمرأة . لأن الرجل الذى يبلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين وهو لم يجد الفرصة بل الفرص المتكررة للحديث الى المرأة ومعاملتها والقعود اليها ينتهى بأن تتجه طاقته الجنسية نحو بنى جنسه من الذكور . وكذلك الحال فى المرأة

وعندما يستقر رأى الشاب على الزواج فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين وهو على غير معرفة وائتناس سابقين بالفتيات ، وعندما يقعد الى فتاة للخطبة ، فانه يسىء الاختيار . وكذلك الشأن فى الفتاة تسىء اختيار الزوج اذا لم تكن قد أتيحت لها فرص سابقة بالقعود الى الرجل والحديث معه والتعامل مع الرجال فى حرفة ما . ذلك لأن الصفات التى يطلبها كل جنس من الآخر تحتاج الى أن تكون على الدوام بارزة فى الوجدان حتى لا تنسى وحتى لا تطغى عليها أفكار فاسدة وأحلام زائفة للانفصال الذى يمنع الاختلاط بين الشبان والفتيات

اننا نحرض الشبان على الشذوذ الجنسى بهذا الانفصال . بل أيضا نجعل من الزواج غشا أو خداعا لأن الخطيبين لا يستطيعان استكناه ميولهما الجنسية التى عطلت بالانفصال قبل الزواج . وهما يتزوجان على جهل ، على احتباس سابق مؤذ للغرائز الجنسية بل ربما على انحراف لهذه الغرائز للانفصال بين الجنسين . ولذلك كثيرا ما ينتهيان بعد شهور الى انهما قد أخطآ فى الاختيار

ان الفتاة المثلى التى تليق للزواج ، والتى ترجح لها ولزوجها السعادة ، هى تلك التى عملت وارتزقت بمجهودها قبل الزواج واختلطت بالمجتمع وتربت التربية الاجتماعية وتحملت مسئولية الارتزاق ومسئولية المصلحة لاجتماعية وأحست أنها عضو نافع منتج فى الامة . وهى حتى حين تقف عن العمل والكسب ، بعد الزواج ، تكون قد كسبت من حياتها الماضية بصيرة بمعانى الوفاق الزوجى والكرامة الشخصية . وتكون قد قدرت الحقوق والواجبات فى عمل زوجها وكسبه . وهى عندئذ تبنى للمستقبل ، لزوجها ، وأبنائها ، فى فهم ودراية . هى

انسان وليست انثى فقط . هى أم لأولادها فى حياة زوجها . وهى أم وأب لأولادها اذا مات زوجها . وهى فى هذه الحال تستطيع ، اذا شاءت ، أن تعود الى الكسب والاحتراف لما كان لها من مرانة سابقة

وهناك أوهام شائعة عندنا بأن الفتاة الاوربية فاسدة لانها تعمل وتكسب . مع أن هذه المرانة السابقة فى العمل والكسب تهيئها لأن تكون الزوجة المثلى التى تقدر سعى زوجها وجهده . وهى لذلك تقدره . كما أن اختلاطها السابق بالمجتمع واحساسها بأنها منتجة نافعة للشعب جعلها تحس الكرامة والشرف ويجعل القيم الاخلاقية عندها اجتماعية وليست فردية

يجب أن نتغير . ويجب أن نرفع المرأة الى مستوى الرجل فى الحقوق الدستورية . وان نعلمها الارتزاق والكسب . وأن نتيح لها الاختلاط بالجنس الآخر حتى تربى الرجل وتتربى هى معه . وهذا الاختلاط هو الذى يجعلها ، كما يجعل خطيبها ، يحسنان الاختيار ويسعدان بالزواج .

والسعادة الزوجية تحتاج الى تكافؤ بين الزوجين . وبعض هذا التكافؤ ذهنى واخلاقى . وهو لن يتوافر الا اذا تعلمت الفتاة وعملت وكسبت قبل الزواج

زواج العقل أم زواج العاطفة

العاطفة هى التفكير الاندفاعى الذى تغلب عليه الحركة أكثر مما يغلب عليه التأمل . وهى خاصة الحيوان والطفل أكثر مما هى خاصة الرجل الناضج . ونحن نسميها شهوة حين تشتد وتغمر كياننا

ونحن الرجال والنساء نشتهى الجنس الآخر لمحض انه الجنس الآخر . أى أن الاشتهاء هنا لا يمتزج بالتعقل والتفكير فى شخصية هذه المرأة أو هذا الرجل الذى نشتهيه . وهذا هو المستوى الحيوانى

ولكن الرجل الناضج المثقف يأبى حتى الطعام اذا لم يكن فيه مايبرر اساغته سوى الطعم الحسن ولذة الشبع . فهو لايشتهى الطعام ويندفع اليه بعاطفة الجوع فقط .. ولكنه يزن قيمته الغذائية . بل يزن أيضا قيمته الفنية فيتأنق ويختار .

وبكلمة أخرى نحن نختار الطعام بعقولنا وليس بعاطفتنا . وكذلك يجب ان يكون شأننا فى اختيار الشخص الآخر الذى نتزوجه ، نختاره بعقولنا وليس بعاطفتنا بحيث لايغرينا أنف دقيق أو فم صغير أو وجه مستدير أو بشرة بيضاء أو نحو ذلك وانما نزن هذا الشخص بعقولنا ونسأل هل يليق أن يكون أما أو أبا لأبنائنا ؟ وكيف تكون شخصيته بعد عشرين سنة ؟

ولا نقصد الى القول بأننا يجب أن نهمل العاطفة . فاننا نعتقد ان الاساس لكل زواج هو الاغراء الجنسى الذى يقوم على استجمال الجسم . ولكن يجب ان نحترس من هذا الاغراء اذ هو قد يثير شهوة عمياء (حيوانية) ليس فيها أى وجدان أو تعقل للمستقبل . وكثير من المآسى الزوجية يعود الى هذا الاندفاع العاطفى فى اختيار الشخص الآخر للزواج . اذ يتضح بعد شهور حين تهدأ العاطفة ان هذا الشخص هو طراز آخر غير

طرازنا واننا نختلف معه فى كل خطوة وان العيش معه لايطاق . ثم يكون الانفصال الذى ربما يقع بعد ولادة طفل أو طفلين تبقى مشكلتهما قائمة نحو عشرين سنة . أو لايكون الانفصال الذى يضحى فيه أحد الزوجين أو كلاهما بالسعادة والوفاق ويستحيل البيت الى جهنم حمراء للشقاق المتواصل

يجب أن نتزوج زواجا انسانيا . ولما كانت ميزة الانسان الاولى هى العقل فان الزواج يجب أن يرتكز أكثره على العقل وأقله على العاطفة . وما دمنا نكفل الاغراء الجنسى فى جمال الجسم فان الاختيار بعد ذلك يجب ان يتجه نحو الصفات الانسانية الاخرى مثل الكفاءة للمعاشرة الزوجية والكفاءة للأمومة والكفاءة للمقام الاجتماعى ونحو ذلك

وعلينا ألا ننسى ان الحب كثيرا مايأتى بعد الزواج وليس قبله . وذلك لأننا نعاين كل يوم من هذا الشريك صفات غالية من الشرف والرقة والكياسة والذكاء مايجعلنا نحبه ونعجب به . بل يجب أن يكون هذا هو البرنامج لكل زواج . بل الواقع ان الحب لايجد مكوناته ومؤهلاته أيام الخطبة السابقة للزواج لما فيها من تكلف وأيضا لما يقوم بين الخطيبين من انفصال الا أوقات الزيارة . أما بعد الزواج فان التكلف يسقط ويبدو كل من الزوجين على طبيعته ومستوى تربيته فاذا كان يستحق الحب على هذا المستوى وعلى هذه الطبيعة فانه يحب

ويجب أن يكون هذا الحب ، بعد الزواج ، هدفا لكل من يرشح نفسه لهذا الرباط الاجتماعى السامى . لأن هذا الاتجاه جدير بأن يهيىء الفتاة والشاب الى التزيد من الاخلاق السامية والنضج الثقافى وتحقيق المكانة الاجتماعية والاستمرار على ذلك طوال المعاشرة الزوجية . وعندئذ لايؤدى سقوط التكلف

الى تلك البذاذة أو ذلك الاهمال الجسمى والذهنى الذى كثيرا مايجعل الزوجة رثة الثياب أو يجعل الزوج فظ الكلمات

ليس الزواج حالا مستقرة وانما هو مجهود مستمر لزيادة الحب والحنان والمؤانسة والثقافة والنمو والنضج للزوجين وللابناء

وأخيرا نقول انه كثيرا مايلتبس على القارىء القول بأفضلية زواج العقل على زواج العاطفة بأن القصد من هذا هو ايثار الزوجة الثرية ، ولو كانت دميمة الجسم أو النفس ، على الزوجة الفقيرة جميلة الجسم أو النفس . وهذا خطأ خطير . فان هذا الزواج ، زواج المال ، هو شر مايقع فيه انسان لأنه يحيل أحد الزوجين الى خادم للآخر أو الى لص خفى يختلس ويخدع . وليس هذا زواجا انما هو خداع ومكر وغش . وهذه كلها جرائم

***

عرفت شابا أغرم بفتاة غرام العاطفة المتأججة التى تعمى بدخانها أكثر مما تضىء بحرارتها . وتزوجها وبقى الاثنان فى حمى الشهوة الجنسية سبعة أو ثمانية شهور

وكان هذا الشاب قبل أن يتزوج يحيا على مستوى عال من الادب والاطلاع والاشتباك فى حركات ذهنية وسياسية واجتماعية . وكان ينشد السعادة بتحقيق أهداف انسانية . وكانت له رفوف من الكتب فى منزله تشبه أو تقارب المكتبة وكان له أصدقاء راقون يحسنون فن الحديث والمناقشة ويتفاهمون عن الموضوعات العامة أكثر مما يحسنون اللعب بالورق أو التنادر السخيف عن الحوادث والاشخاص

وبكلمة موجزة أقول انه كان له قلب يحس الاحساسات الحميمة نحو الطبيعة والبشر والتمدن والثقافة

وبعد سبع أو ثمانى سنوات من زواجه ، هذا الزواج العاطفى الذى وقع فيه دون أن يحتكم الى عقله ، وجدته حيوانا أليفا يشكو

كثرة الابناء ولا يفكر الا فى طعامهم وشرابهم لضيق رزقه . وقد أنسته زوجته جميع القيم العالية السابقة التى كان يستمتع بها : الكتب والاصدقاء والمبادىء والطبيعة . ورأيت زوجته فوجدتها امرأة سمينة تأكل اللب وتمضغ اللبان وتطبخ طعامها بالثوم حتى تحت شاهيتها اليه وحتى ليفوح نتنه منها . ولم تقرأ الا المجلات المصورة الوضيعة ولم تكن تعرف كلمات المناقشة أو موضوعاتها .

حياة وخيمة وبيت وخيم . ولو أن هذا الشاب كان قد تعقل واختار زوجة يقبلها العقل لما أكثر من الابناء حتى يرهق بهم وحتى يحرم نفسه بسببهم متع التربية الذاتية والارتقاء المتواصل ولما نزل عن أمانيه الانسانية السابقة

زواج العقل هو الزواج الانسانى . وزواج العاطفة هو الزواج الحيوانى

لغة الحب

مما يجهله كثيرمنا ان للكلمات أثرا فى صحة النفس ومرضها . فان كلمات المروءة والشرف والحرية والانسانية والديمقراطية والشهامة والشجاعة وأمثالها تعين لنا أهدافا واتجاهات سامية. فى حين أن كلمات الحسد والشماتة والانتقام والثأر والدم (بمعنى الثأر عند الصعايدة) توجه الناس نحو الشر كما تحدث سلا داخليا يأكل النفس

وفى أقطارنا العربية ما زلنا نستعمل كلمات لها اسوأ الاثر فى العلاقات الجنسية وفى مكانة المرأة فى المجتمع وارتقائها . فان المرأة حين تبلغ التاسعة والاربعين نقول انها بلغت سن « اليأس » وهذه كلمة بشعة جديرة بأن تزعزع الكيان النفسى فى المرأة وخاصة اذا كانت لها ضرة اصغر منها فى السن او كانت تخشى الطلاق او كانت تعانى حديث الحماة المنافرة . اذ نحن نقول للشاب حين نجد منه خوفا او احجاما : لاتيأس . ولكننا نقول للمرأة : أيأسى : موتى

ولو اننا اسمينا هذه السن سن الحكمة او سن النضج لكان لهذا التعبير قيمته الكبرى فى السكينة النفسية والكرامة الشخصية عند المرأة

وكذلك نحن نرتكب جريمة لغوية اخرى عندما نسمى الاعضاء التناسلية فى الرجل او المرأة بأسماء الاستهتار والاحتقار . لاننا بذلك نلصق بها خسة اورذيلة وكأننا نجعل مقاطعتها بالنسك والرهبنة فضيلة . وهذا على الرغم من ان هذه الاعضاء هى الوسيلة للخلود البشرى وبدونها يكون الانقراض للنوع البشرى كله

ان الاوربى يجد فى لغته كلمات سامية تعبر عن الحب ويقرأ قصصا عالية يفهم منها ان الحب رقة وحنان وشرف ووفاء

وان الاعضاء التناسلية من اشرف ماتحتويه اجسامنا . كما انه يحترم المرأة ويعدها مساوية للرجل . وهو ، لهذا السبب ، عندما يفكر فى الحب والزواج يجد من هذه الكلمات ، ومن هذه القصص ، ومن مركز المرأة الذى يساوى مركز الرجل ، يجد من هذا كله اسلوبا يتخذه فى الحب واخلاقا يتخلق بها فى الزواج

ولكننا فى مصر قد تعلمنا كلمات بذيئة عن الاعضاء التناسلية ، ونكات داعرة عن الاتصال الجنسى ، وقرأنا قصصا مهينة للكرامة عن الحب والزواج وفشت على ألسنتنا كلمات ، أى أفكار وصور ، جعلتنا نقترب من هذه الموضوعات كلها كما لو كنا حشاشين داعرين

واحيانا يحدث التصادم . من ذلك مثلا ما شاهدته بنفسى . فانى عرفت شابا وقع فى جنون المراهقة ، الشيزوفرينيا ، لانه رأى والديه فى وضع زوجى

ذلك انه نشأ على أن الامومة مقدسة . ولكن الاتصال الجنسى مدنس . فلم يستطع التوفيق بين الاثنين . وطار عقله الى غير رجعة

ولو اننا كنا قد علمناه الكلمات المهذبة عن الحب والزواج ، ولو انه لم يكن قد سمع كلمات الحشاشين عن الاعضاء التناسلية ، ولو انه كان يختلط بالجنس الآخر الاختلاط المهذب فى ضوء الصراحة لما استغرب هذا المنظر الذى صدمه وأطار عقله

أجل . ان لنا كلمات وعادات فى مصر تذهب احيانا بأبنائنا الى المارستان

يجب ان نعلم ابناءنا وبناتنا وظائف الاعضاء التناسلية التى يجب ان نحوطها بهالة تنأى بها عن النكتة القذرة والنادرة

السمجة . لان هذه الاعضاء هي للخلود ، للخلود البشرى . وهى ليست للنكات والنوادر

وهذه النظرة الساخرة الاستهتارية التهكمية للاعضاء التناسلية وللمرأة هى تراث القرون الماضية حين كان يشترى الرجل المرأة للاستهتار الجنسى فيلعب ويعبث بها كما يشاء . فلم تكن علاقته بها علاقة الانسان بالانسان وانما كانت علاقة الانسان بالعبد . ثم كان من تفشى الاتصال الجنسى الشاذ دافع آخر يجعل من ذكر الاعضاء التناسلية خسة وبشاعة

أما الرجل الذى يمتاز بنظافة القلب والعقل فلا يجد فى هذه الاعضاء مايثير السخرية او التهكم . هو رجل امام امرأة ، هو انسان ازاء انسان ، كلاهما يحب الآخر ويحترم انسانيته ويعجب بجمال جسمه وجمال نفسه معا

يجب أن يتعلم شبابنا فن الحب ، فن الحياة الزوجية التى تمتلىء بالحنان والسرور ، فى احترام متبادل بين الزوجين

لقد كانت تقاليدنا الاجرامية تقتضى العريس ان يفض بكارة عروسه فى الليلة الاولى من الزواج بأسلوب وحشى قد ارتخص فيه الحياء وقد استعين فيه على اسكات العروس بنسوة رقيعات يغمرهن احساس الشماتة ولذة التعذيب . وكانت هذه الليلة تبقى بعد ذلك رمزا ، اسوأ الرمز ، لافتتاح الحياة الزوجية بالصراخ والدم

ولكننا قد ارتفعنا فى أيامنا وأقلعنا عن هذه العادة . ويجب ان نرتفع ونقلع عن عادات اخرى لغوية وعملية فى الحب والزواج . وانه لمن الضرر العظيم ، للنفس والجسم ، ان يعيش كل منا نحو خمسين أو ستين سنة فى حال زوجية ثم نجعل هذه الحال أسرارا والغازا ونكات ونوادر بدلا من ان نكشف عنها ونسلط عليها أضواء سيكلوجية تنيرها وتزيد سعادتها وتبرر لمعتها

ان الزواج ، كي يكون سعيدا ، يجب أن يكون حرا ، لا اجبار بل لا اغراء فيه ، لاحد العروسين أو الخطيبين . ويجب ان تسبقه مدة للاختبار حين يترافق الخطيبان للتعارف . كما يجب ان يكون قائما على الدوام على العقل وليس على العاطفة .

ويجب ان نعلم شبابنا كيف يحترمون كل مايتصل بالتناسل ويرتفعون به عن كلمات الاحتقار والاستهتار . لان الكلمة السيئة التى يتعلمها الشاب مدة عزوبته تحمل الفكرة السيئة التى يمارسها بعد ذلك مع زوجته .

كلمات اللغة هى عادات التعبير باللسان والسلوك الزوجى والاحساسات العائلية والمعيشية فيجب ان نقاطع الكلمات البذيئة الزرية لانها تحملنا على سلوك بذىء زرى يفسد القيم الزوجية والاحترام لاعضاء الخلود البشرى. وبكلمة أخرى يجب أن نتعلم كلمات الحب المهذبة حتى نعامل زوجاتنا المعاملة الجنسية المهذبة ويجب ان نقاطع كلمات الحشاشين لانها ، اذا ثبتت على ألسنتنا ، أكسبتنا عقلية الحشاشين فى معاملة الزوجة

ابن حزم والحب العذرى

المعنى الحرفى الذى نستطيع أن نستخلصه من عبارة « الحب العذرى » هو الحب للفتاة العذراء بحيث يدوم الحب مع عذريتها . ولكننا نجد أن الذين مسوا الحب من هذه البؤرة قد أضافوا اليه من الخيال والحنان والرقة والانسانية ما سما به الى معان جديدة ترتفع على هذا المعنى الاصلى .. فجعلوا المحب ينشد الطهارة حتى ولو لم تكن حبيبته عذراء

وقصص العرب الخيالية أو الحقيقية عن قيس ولبنى أو المجنون وليلى، هى من هذا القبيل . فاننا نجد حبيبين يتعاهدان على الوفاء . فيذكر كل منهما الآخر فى قلبه ويجرى اسمه على لسانه وتعود اليه ذكراه فى رقة وحنان . وقد يلتقيان فلا يكون بينهما سوى الحديث . حديث القلب الذى تشرف عليه رقابة العقل لأن أحدهما مرتبط بزوج آخر يجب أن يجد الأمانة والعفة من زوجته حتى ولو أحبت غيره

ومثل هذا الحب يطلق الشعر . فقيس لبنى ومجنون ليلى كلاهما شاعر . وقد ورثنا عنهما أجمل الأشعار الخالدة فى المعانى السامية للوفاء والحنان .

وكلمة « اللوعة » هى احذى الكلمات الحميمة فى هذا الحب العذرى . اذ هى تعنى الشوق فى ألم لذيذ . هو احتراق لا يلسع ولكنه يدفىء . والآم المحبين هى لوعات قد يضنون منها ولكنهم يلتذون ضناهم . وهم على الدوام محسودون على لوعتهم وضناهم .

والقليل من التأمل فى الألم واللذة ، فى الحب واللوعة، يحملنا على الاعتقاد بأن كل ألم ، اذا خف ، يعود لذة . وكل لذة اذا اشتدت ، تعود ألما .

ألسنا نضحك من التجميش ونتألم من القرص ؟

***

والحب العذرى أكثره بل كله لوعة اذ هو فى صميمه ألم لذيذ.

ذلك أن المحب يرتفع بحبه الى التضحية . فهو يخشى على حبيبته أن تفتضح . بل هو يخشى عليها الخيانة لمن ارتبطت به اذا كانت متزوجة . أو يحب أن يصون عذريتها كما لو كان أخا أو أبا . فهو لذلك يألم ويحس اللوعة ولكنه يرضاها ايثارا لحرمة حبيبته . ومثل هذا الحب يدوم طويلا . بل هو يخلد طيلة عمر المحبين اذ هو نار لا تنطفىء أبدا . نار تضطرم دون أن تشتعل .

ونستطيع ان نصف هذا الحب بأنه فلسفى . من حيث أن الحكمة والتبصر والحنان وسائر ما يتصل بهذه المعانى تسوده ، كما أن لغته هى لغة الفن : شعر أو رسم أو لحن أو غناء ، ومن هنا عناية الامام ابن حزم الاندلسى بهذا الحب . فقد ارسل له كتابا جميلا يدعى «طوق الحمامة » . . وقد مات ابن حزم فى سنة ٤٥٦ هجرية وخلف لنا ثروة من الادب والفلسفة والشعر . ولكن هذا الكتاب هو أجملها وان لم يكن أثراها . وهو يعالج فيه سير المحبين ويقارن بين الحب المفاجىء والحب بالمطاولة . وفضل التعفف والوفاء . والهجر والغدر . بل أنه ليخص موت المحبين بفصل .

وهو ينكر الحب من نظرة واحدة ويقول عن نفسه : «وما لصق بأحشائى حب قط الا مع الزمن الطويل . وبعد ملازمة الشخص لى دهرا . وأخذى معه فى كل جد وهزل » .

وهذا كلام حكيم يتبصر وينأى عن رعونة الحب . ذلك أنه لا يحب وجها مشرقا أو جسما نيفا . وانما هو يحب بعد أن ينفذ الى قلب حبيبته ويقرأ عقلها ويعشق شخصيتها . وكل هذا يحتاج الى وقت لا تكفيه «نظرة واحدة »

ولذلك يرى ابن حزم أن الانسان لا يستطيع الحب لاثنتين ويقول : « وأما ما يقع من أول وهلة ببعض اعراض الاستحسان

الجسدى ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الالوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة... وهى على المجاز تسمى محبة ، لا على التحقيق . وأمانفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه . فكيف بالاشتغال بحب ثان ؟ »

وهو يذكر لنا وفاء زوجة يذكر اسمها واسم زوجها على أنه كان يعرفهما فيقول أنهما كانا على حب عظيم . فلما مات الزوج « بلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله . ثم لم يفارقها الاسف بعده الى حين موتها »

ويروى لنا ابن حزم قصة موجزة عن غرام موجز . ونحن نحس بعد أن نقرأها ، كما كتبها بقلمه ، أننا نود لو نسأله كيف رضى أمام الأندلس بروايتها . فهو يقول :

« حدثنى ثقة من اخوانى ، جليل من أهل البيوتات ، أنه كان قد علق فى صباه جارية فى بعض دور آله . وكان ممنوعا منها فهام عقله بها . قال : « فتنزهنا يوما الى بعض ضياعنا بالسهلة غربى قرطبة مع بعض أعمامى ... الى أن غيمت السماء وأقبل الغيث . فلم يكن من الغطاء ما يكفى الجميع . فأمر عمى ببعض الأغطية فألقى على وأمرها بالاكتنان معى . فظن بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا يشعرون . وياله من جمع كخلاء واحتفال كانفراد .. » وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك . وهو يهتز فرحا على بعد العهد وامتداد الزمان »

وقبل أن أترك ابن حزم يجب أن أنقل منه هذه الحادثة التى يرويها عن نفسه وكأنه قد انتشى بالذكرى التى تلهمه أجمل الكلمات وأبلغ المعانى . قال :

« ولقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الازمان عند امرأة من بعض معارفى ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللائى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا . ثم غبت عنها أعواما كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت . ووجدتها قد جرى على وجهها الشباب ففاض وانساب . وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت . وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت . وانبعثت من خديها أزاهير الجمال فنمت واعتمت ... وبت عندها ثلاث ليال متوالية . ولم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب اليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول الدار خوفا على لبى أن يزدهيه الاستحسان »

***

وهذا الكتاب « طوق الحمامة » قد كان ايحاء جديدا للثقافة الاوربية فى القرن الحادى عشر . فقد كانت الاندلس فى ذلك القرن القطر المتمدن الوحيد فى أوربا وكان العرب الذين يقطنونها على اتصال بأقطار العالم العربى من سمرقند شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا . فى حين كانت الثقافة الاوربية لاتزال قروية لا تعرف شيئا من التجارة العالمية التى تبعث الحضارة بتبادل السلع وتحيى الثقافة بالتبنى للغريب من الافكار والعادات .

ولذلك كانت الحرية الفكرية على أعلاها عند الاندلسيين وكانت الفنون كذلك على أتقنها وكان الاوربيون يأخذون من الاندلس علوما وآدابا وفنونا .

وكان « طوق الحمامة » هذا بعض ما أخذوا . فعرفوا منه الحب العفيف ، الحب العذرى ، وألفوا القصائد والقصص عن النبلاء الذين يخرجون لانقاذ العذارى وحماية السيدات ، وفشا من ذلك فن القصص الغرامى الخيالى الذى عم فرنسا فى القرون الوسطى . وكان له طابعه ، ليس فى الأدب الفرنسى فقط ، بل فى

الاخلاق الفرنسية ، أخلاق الحب بين المتمدنين .

وهذا القصص الغرامى الذى فشا بايحاء كتاب الامام ابن حزم قد ارتفع بالشهوة الجنسية الى الحب العفيف وعين له أسلوب وجعل متعة الشباب وسعادة الجنسين ونص فيه على حق كان ينكر من قبل بحكم العادات والتقاليد .

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة « الحب » من الكلمات التى تتعدد معانيها وتختلف . ولذلك احتاج مترجم الانجيل الى أن يستعمل كلمة « المحبة » للمعنى المسيحى الخاص . وهذا التعدد يتضح عندما يقول أحدنا: انه يحب البرتقال . أو يحب زوجته . أو يحب النظام . أو يحب الله . فاننا هنا ازاء طائفة من المعانى المختلفة التى كان يجب أن يكون لكل منها كلمة خاصة تبعث احساسا خاصا .

ونحن نقتصر هنا على معنيين هما الحب الجنسى والحب البشرى . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر ، الاخاء والصداقة والتعاون ، الى الحب الجنسى . كأن هذا هو الجذر الذى اليه ترجع عواطفنا البشرية السخية . ولكن الحقيقة أن كلا منهما يرجع الى أصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجنسى هى التناسل . وغاية الحب البشرى هى تكبير الشخصية والتعاون الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى .

وليس هذا الذى نسميه « حبا جنسيا » ضروريا للتناسل . فان السمك مثلا يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب . لأن الذكر يلقى أحيانا بجراثيمه فى الماء . وكذلك الانثى تلقى بويضاتها فى الماء مثله . ثم يتم التلاقح فى الماء دون أن يعرف الذكر الانثى .

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتى تتضح من سلوكه هى عاطفة الافتراس والاكل والالتهام . فان الذكر يفترس الانثى وليس بين الاثنين حنان . وأحيانا ينقلب التلاقح الى شجار وقسوة وافتراس . واذا كان الحب الجنسى بين البشر قد خالطته رقة وحنان أو عطف فانما مرجع ذلك الى الثقافة الاجتماعية التى ارتقت بها عواطفنا .

أما الحب البشرى فمرجعه الى ينبوع آخر هو حب الأم لأولادها

وحب هؤلاء لها . وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجنسى . اذ هى تنضح حنانا ورقة وهى تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا .

والانسان البدائى كان دائم الارتحال . فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربيهم . وكان تعلقهم بها يحملهم أيضا على أن يتعلق أحدهم بالآخر . فاذا ماتت الأم مثلا بقى الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة يتعاشرون ويتعاونون . وهذه الأخوة بينهم هى أصل الاخاء البشرى بل أصل المجتمع .

بل نستطيع أن نزيد هذا التمييز بأن نقول انه اذا أحب الرجل المرأة حبا عميقا بشريا فان هذا الحب يحول دون الحب الجنسى . كأن هناك تناقضا بين الاثنين : الأول كله حنان ورقة . والثانى بعضه افتراس وقسوة .

وعندما نتأمل الحب الجنسى نجد انه غريزة ذاهلة . ولكن الحب البشرى عقل وضمير . ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب البشرى الذى ترتقى به شخصيتنا . لأن هذا الحب يستنبط هنا أحسن الخصال فى الحنان والرقة والظرف والكياسة بل أحيانا فى التضحية . وهذا الحب هو الذى يجعل الانسان انسانيا . وما ندعو اليه من اخاء بشرى ، أو ما نقدره من خصال فى صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نضحى لتحقيقها ، انما كل هذا يعود الى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف الامومة والبنوة

قلنا أن الحب البشرى عقل وضمير . ولذلك نحن نزداد فهما بالحب . لان الحب ينبه الذهن ويوقظه . وهو هنا نقيض الحب الجنسى الذى ننساق فيه بالغريزة . ولذلك أيضا كثيرا ما نجد أن بذور العبقرية ، أو على الاقل النبوغ ، تعود الى الحب . لأن الصبى الذى يحب الطبيعة ويجمع الأحياء أو الزهور أو الأصداف

والمحار ، هذا الصبى يحدوه حب بشرى قد استحال الى حب للطبيعة ينبه ذكاءه ويبسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو بهذا الحب أقرب ما يكون الى النبوغ أو العبقرية . لأنه ، بالحب ، يرى أكثر ويفهم أكثر . كما ترى الأم فى ابنها وتفهم أكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذى تحس به نحوه .

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، أى الحب ، يملأنا تفاؤلا فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء أو على الأقل نلتزم أصدقاءنا ونخدمهم فى سرور . واذا جعلنا أساس علاقاتنا بالناس والدنيا حبا فاننا لا نسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو الى العطف والفهم .

ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج الى تدريب . وصحيح أننا نكسب شيئا من الحب العائلى أى من علاقتنا بالأم والاخوة والاب . ولكن هذا الذى نكسبه عفوا فى طفولتنا وصبانا يحتاج الى الرعاية والتنمية . ونستطيع أن نتعود الحب بالصداقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب .

والرجل الذى تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع أو البشر هو أقرب الناس الى السعادة وهو أبعد الناس عن الشقاء . وكلمة السعادة من الكلمات التى يجب ألا نخلطها باحساس السرور ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة أكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل

ومن هنا تأكيد الاديان جميعها للحب . اذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب ، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبارة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحيا للحب .

ذلك أن الحب يحتاج الى تربية كما يحتاج الى مرانة . ويجب لذلك أن يكون مثقفا من ناحية بالتربية وعمليا من ناحية أخرى بالمرانة .

فنحن نعرف أن الرجل المثقف الذى يتجه الوجهة العالمية ويدرك الدلالة للتطورات التاريخية ويدأب طوال عمره فى درس الشئون البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب ، لأنه يعرف ، أكثر من غيره . وقلبه أسمح لانه أعرف . فاتساع المعرفة سبيل الى اتساع الحب . ولهذا السبب أيضا يعد الأدب فى صميمه ، والفلسفة فى صميمها ، دعوة الى الحب البشرى والخير العام .

ولكننا نحتاج ، كى نجعل الحب مزاجنا النفسى واتجاهنا الأخلاقى الى المرانة . أى يجب أن نؤدى عملا مما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضىء هنا بمعارفه السابقة لأنه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذى يعين الهدف والسلوك . وقد يقنع أحدنا بالاحسان لمعاونة الفقراء . أو الانضواء الى جمعية لمنع القسوة على الحيوان أو معاونة الصبيان المشردين أو نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف أكثر لأن ثقافته أوسع وأعمق . وهو لذلك أنفذ بصيرة فى الاسباب التى تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، أن الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التى يجب أن يقوم بها لأنها جماع الاصلاحات التى ينشدها غيره متقطعة مجزأة . وقد يجد عملا آخر . ولكن المهم أننا نحب بممارسة الحب . وأن هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهما وسعادة . ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذى يؤمن به دون أن يعين اسمه بأنه دين الحب ، لقال أحسن ما يقال وقصارى ما يقال وأسمى ما يقال عن الدين .

التعقل فى التناسل

ليس هناك مأساة اعمق ألما وأشد لوعة من ان يرى الابوان طفلهما وهو ينأى عاما بعد آخر عن النمو البشرى السوى . وجه يتكتل بلحم يشبه الجلد الثخين وعينان مغوليتان . وهذا الى لجلجة تشبه الخرس مع عجز عن ترتيب الكلمات وقصور عن فهم المعانى ثم ركود عام فى الجسم والذهن ثم توقف عن النمو حوالى سن العاشرة او بعد ذلك بقليل

ونحن الآباء عرضة لان نعقب مثل هذا الطفل . ولكن الاحتمال ضعيف بحيث يقارب الانتفاء . وقد اعقبت المؤلفة الامريكية بيرل بك صاحبة قصة « الارض الطيبة » بنتا بلهاء من هذا الطراز المغولى وقد عنيت بها كثيرا تأمل ان تشفيها وتردها الى سواء البشر . ولكنها لم تفلح . واخيرا سلمتها ، وهى فى لوعة الشوق اليها والحزن عليها ، الى مصلحة تقتضى فيها سائر حياتها بعيدة عنها

وقد ذكرت هذه القصة كى أبين ان التناسل لايمكن ان يترك جزافا كأنه حق لكل انسان . فاننا نعقب الحسن والسيىء من الابناء . لانه اذا كان الزواج حقا للزوجين فان التناسل ليس حقا لهما

ومع ان هذا الحادث الذى وقع لبيرل بك لايمكن الحذر منه واتقاء وقوعه فان هناك مايقاربه من الاستهتار التناسلى . ام بلهاء من أسرة اشتهرت بالبلاهة ولكنها ثرية تتزوج وتعقب للشعب نحو سبعة او ثمانية اشخاص من البله العاجزين او هى قد تعقب الحسن من الاطفال ولكنها ، لانها بلهاء ، تسىء اليهم فى التربية وتعودهم رجوع واستجابات مؤذية تجعلهم ينشأون نشأة غير اجتماعية

نحن البشر لا نختلف عن الحيوان . كل عائلة مناهى سلالة قائمة منفصلة لها صفاتها الحسنة او السيئة . ويجب ان نحذر الاصهار الى عائلات اشتهرت بالبلاهة كما نحذر الاصهار الى عائلات اشتهرت بالدمامة . اى يجب ان نطلب الجمال والذكاء معا فيمن نتزوج

ومع ان مؤلف هذا الكتاب يؤمن كثيرا بقوة الوسط وتأثير التربية والقدوة الاولى ايام الطفولة فانه مع ذلك لايستطيع ان ينكر الوراثة اذ هى حقيقة بارزة لايمكن اهمالها

وثق ايها القارىء انك حين تتزوج وتعقب فان ابنك قديكون أشبه بخاله او عمه منك انت . ولذلك انت ، بيولوجيا ، تتزوج العائلة كلها وليس الفرد الذى يشاركك فى البيت وحده

واعتقادى ان اليوم ليس بعيدا حين تتدخل الحكومات فى التناسل وتقرر لكل فرد عددا من الاطفال يتناسب مع مواهبه فى الجمال والذكاء . بل هى قد تمنع البعض من التناسل ثم تكافىء الآخرين حتى يزيدوا من عدد ابنائهم

وهناك حكومات كثيرة تمارس هذا المنع الآن . بل احيانا تخصى هذه الحكومات الآباء اى تعقمهم حتى لايتناسلوا اعتقادا بأنهم لو فعلوا لكان ابناؤهم على غير ماتحب الدولة من كفاءة عقلية او صحية فى ابنائهم

ونحن العاديين يجب أن نتعقل ونمارس التناسل وفقا للحال المعيشية التى نكون فيها . فاذا كنا فقراء واحوال العيش غير ميسرة للتعليم والصحة والرفاهية فيجب ان نتناسل فى اقتصاد . واذا كنا أثرياء فلا بأس من التناسل بلا حساب غير حساب الصحة فى الوالدة

ولكنى لا أدعو الى تحديد النسل باعتبار هذا التحديد خطة عامة تعمد اليها الحكومة ويتبعها الشعب . لان مثل هذه الخطة

تعد تدميرية تعمل للهدم وليس للبناء . وهى تبعث على الركود الاقتصادى بدلا من الاقدام

ففى مصر مثلا نحو ثلاثة ملايين فدان يمكن اصلاحها كما اننا نستطيع ان ننشىء نحو الفى مصنع تستوعب نحو ستة او سبعة ملايين من العمال . واذا أتممنا هذه الانشاءات الاصلاحية فان مصر تستطيع ان تستوعب نحو ثلاثين مليونا يعيشون فى رغد ورفاهية

وبكلمة موجزة نقول انه كى نكون سعداء يجب ان نتوقى الزواج من فتاة ناقصة الذكاء . ويجب ان نحدد النسل بحيث نستطيع تربية الابناء دون ارهاق لنا او اهمال لهم

بل أقول اكثر من ذلك . وهو انه اذا وجدت الام او الاب ان هناك فيمن ولد لهما من أطفال اتجاها نحو ضعف العقل او الجسم فعليهما أن يكفا عن الزيادة فى التناسل . ويحسن الاب عندئذ اذا عمد عن اختيار وتعقل الى التعقيم الذى يتيح له الاتصال الجنسى ولكن مع العقم التناسلى

الرجل والمرأة والزواج

نحن نعيش فى بيوتنا أكثر مما نعيش خارجها ، ولن تهنأ حياتنا لهذا السبب الا اذا عنينا أكبر العناية بأن نجعل بيوتنا حاوية لصنوف الراحة والرغد . وحياة العزوبة هى حياة ناقصة قليلة الاختبارات والمتع . والمتزوج قد لايطول عمره أكثر من العزب ولكن حياته أعرض . وهى أعرض بالمسرات بل والاحزان التى لا يعرفها العزب

ومعظم العمر نقضيه مع زوجة قد عرفناها فى الاغلب بعد سن العشرين أو الثلاثين ، وقد عاش كل منا قبلا فى بيئة تختلف عن البيئة التى عاش فيها الآخر ، ولذلك ليس بعيدا أن نصطدم وأن تحفل الحياة الزوجية بالمتاعب .

ولكن هناك ماهو أخطر من هذا ، ذلك اننا نعيش فى مجتمع اقتنائى تحاسدى يجعل الانانية فضيلة ويحملنا على المباراة واقتناء المال . ثم يشملنا هذا الروح فتعود الانانية والرغبة فى الخطف والاقتناء والحسد والحقد والبعد عن الحب والتعاون ، كل هذا يعود كما لو كان هو الطبيعة البشرية الاصلية . فاذا تزوجنا عاملنا الزوجة وفق ماتعلمنا وتدربنا عليه فى المجتمع ، فنطالب الزوجة بالخضوع ، ونطالبها بأن تخدم ملذاتنا ، ثم نلتذ ملذاتنا على انفراد نفسى وفى خطف ونهب كما كنا ، ولا نزال ، نعيش فى المجتمع

وليس هذا المجتمع الذى وصفنا جديدا ظهر فى عصرنا ، اذ هو قديم قد رسخت أخلاقه فى سلوكنا وتصرفنا ، وهو يشقى حياتنا الزوجية . وله علامات تخفى أحيانا على الناقد فضلا عن عامة الناس . فان أتوقراطية الرجل ورغبته فى أن تكون زوجته أداة للذة يقابلها دلال المرأة وغيرتها الجنونية من الاوهام والحقائق . وكلاهما يسير بروح الاقتناء والخطف كما لو

كان كل منهما تاجرا يشترى رخيصا كى يبيع غاليا

وأسوأ ماتعلمناه من هذا المجتمع الانانى التحاسدى الاقتنائى الذى نعيش فيه ، اننا ننظر الى المرأة جنسيا بدلا من أن ننظر اليها انسانيا . فهى امرأة فقط وليست انسانا ، نعنى اننا نقتنيها كى تخدم ملذاتنا وتغسل أولادنا فهى ليست الانسان المتعاون الصديق الزميل الذى نرافقه ونصادقه ، ولذلك كثيرا ماتستحيل البيوت الى مطاعم أو فنادق للأكل أو النوم فقط . وهذا المنظر يوهم الكسب للرجل ، ولكنه فى صميمه يعود عليه بالخسار أيضا حتى من ناحية اللذة الجنسية ، اذ هى فى هذا النظام تتقلص الى الخطف والنهب فتجرى وكأنها صرع تشنجى ، أو كأنها طرب جنونى ، يغمر الجسم فى عجل ثم ينطفىء فجأة

لذة عابرة خاطفة لانذكرها بالحنان والحب والصداقة ولكن بالخطف وأحيانا بالقسوة والاغتصاب . وكثير من الشذوذات الجنسية لهذا السبب يعود الى المبالغة فى الانسياق فى الصفات الاجتماعية التى يطالبنا بها النجاح فى الكسب والوجاهة والتفوق . اذ أن هذه جميعها تحتاج الى الخطف والنهب والقسوة والحسد والانانية بل أحيانا الى الغش . والشذوذات الجنسية هى فى صميمها غش .

واللذة الجنسية هى فى صميمها ، فى أسلوبها نقطة التبلور لاتجاهنا الاجتماعى واخلاقنا الاجتماعية فليذكر هذا كل شاب وكل فتاة .

ومن هنا الكثير من الرذائل التى تحسب فى ظاهرها رذائل زوجية ولكنها فى باطنها رذائل اجتماعية . فان الشاب الذى يخشى أن يتزوج الفتاة المتعلمة انما هو فى صميمه يخشى المساواة التى لم يتدرب عليها فى المجتمع . اذ هو نشأ فى مجتمع

قد غرس فيه الرغبة فى التفوق والتسلط والانانية والخطف فكيف يمارس كل هذه الصفات فى حرفته ومعاملته وينساها فى الزواج ؟ فهو يعامل زوجته تلك المعاملة الحميمة التى تعلمها من البغى حين كان يؤدى ثمن لذته بالقرش والمليم ويخطف منها هذه اللذة خطفا . وهذه المعاملة ترسخ فيه فلا يعرف كيف يغيرها. ولو أنه كان قد نشأ بروح التعاون والحب والمساواة لكانت اللذة الجنسية نفسها لاتتم الا بهذه الصفات ، وعندئذ كانت تكون متبادلة هنيئة للزوجين .

ولهذا أصبح الزواج كأنه صفقة حيوانية تتم بين الرجل والمرأة لايسودها الحب والثقافة . أجل، الحب والثقافة . وكلاهما لايعرفه الحيوان .

ولكن حتى المقارنة بيننا وبين الحيوان لاتدل على أن الكسب فى جانبنا ، لأن أقل مايقال فى الحيوان أنه ينساق بغريزته الساذجة الفطرية ولكنا نحن نفسد هذه الغريزة بعادات المجتمع الانفرادى القائم على الخطف والخوف والنهب والحسد والاغتصاب . فنحن لانتعاون فى اللذة الجنسية بل نتخاطف فى طرب جنونى وصرع وقتى سرعان مانفقدهما ونعود الى مايقارب اليأس والجمود والنفور .

ولن يتحقق الهناء الزوجى الا بعد أن يعيش النساء والرجال فى تعاون ومايجلبه هذا التعاون من حب وأخاء ومساواة وطمأنينة واستبشار بالمستقبل . لأن المجتمع الذى نعيش فيه فى الوقت الحاضر يشقينا بالقلق ، فنحن نقلق ونخاف ، نخاف الفقر والمرض والهزيمة فى المباراة الاقتصادية والافلاس ، كل هذه الصفات تنتقل الى العلاقة الجنسية ، فتعود هذه العلاقة قلقة غير مطمئنة .

أى أن نظامنا الاجتماعى ينتقل بأساليبه الى نظامنا الجنسى . فاذا كنا نخاف الدنيا ونهرول ونخطف ونقلق ونحسد ونؤثر

أنانيتنا على مصلحة اخواننا فى المكتب والمتجر والسوق والمصنع، فاننا ننقل كل هذه الصفات الى العلاقة الجنسية ، فلا نستمتع بالغريزة الفطرية التى يستمتع بها الحيوان بل نفسدها باحساس سيىء من حياتنا الاجتماعيـــة السيئة .

ولذلك نحتاج ، كى تهنأ الحياة الزوجية وتزول الشـــذوذات الجنسية ، الى مجتمع تعـاونى سوائى يقوم على الحب وليس على المباراة ، أى يجب ان نعيش فى نظام اشتراكى ويجب أن يتعلم الرجال والنساء منذ ولادتهم الى وفاتهم ، الأختلاط والتعـــاون والمساواة ، ويجب ان نطمئن على عيشنا فلا يكون هناك قلق يغمر شخصيتنا ويحملنا على الهرولة والخطف : هـــرولة وخطف فى المجتمع يؤديان الى هرولة وخطف فى التعارف الجنسى .

فاذا تم هذا أى اذا تغـيرت « الطبيعة » البشرية ، وهى فى صميمها طبيعية اجتماعية ، واذا تساوى الرجال والنساء ، عمت الطمأنينة وزالت الرغبـــة فى التسلط وعندئذ تهنأ الحيـــاة الزوجية وترقى عـلى أسس من التعاون والحب والثقافة ، فـلا تكون غريزية كالحيوان ولا شقية بالاحساس الاجتمـاعى السيىء الحاضر . وتخـــرج المـرأة من أنثويتها الضـيقة الى ميـــدان الانسانية الواسع .

احترام المرأة

كان هنريخ هاينيه من أدباء أوربا الذين كتبوا النثر بمعانى الشعر وايقاعه ، وهو ألمانى الاصل ، فرنسى الاسلوب ، انسانى النزعة ، وكانت الامراض قد حطت عليه والزمته السرير سنوات وكان يقابلها بابتسامات التهكم وكلمات المزاح التى اثرت عنه كأنها من الخوالد التى لايزال يتنادر بها الادباء ويتفكهون بمعانيها الانيقة العميقة .

ولما رأى ان الوفاة قد اقتربت، وأن زوجته لاتزال فى شبابها كتب وصيته وشرط على زوجته أن تحرم ميراثه الا اذا تزوجت بعده .

وهذا العمل هو نقيض مانرى احيانا فى بلادنا حيث تحرم الارملة الميراث اذا تزوجت ، لان الزوج يغار وهو فى قبره من زواجها ، وهو يريد أن يتحكم فى مصيرها حتى عندما تكون الديدان قد تولت أفناء جسمه.

وهذه الانانية النكدة التى يعامل بها بعض الازواج زوجاتهم عندنا والتى يفرضون بها عليهن عزوبة قد تلقى بهن فى المآزق الاجتماعية الخطرة، قد قابلها هاينيه بغيرية سخية ، اذ أصر على أن زوجته الشابة يجب أن تستمتع بزواج آخر عقب وفاته، يرافقها سائر حياتها ويخفف عنها أعباء الدنيا التى ربما لم تكن لتستطيع تحملها وحدها وهى أرملة .

اننا فى مجتمعنا نعتاد عادات البخل خشية المستقبل المجهول، ويعود هذا البخل كزازة نفسية وانطواء عاطفيا ، كأن شعارنا فى الحياة « أنا وحدى » ويسرى هذا الاحساس فى كياننا ويسيطر علينا فنساق به ، ونحاول أن نجعل هذا الاحساس خالدا بشروط وقيود على زوجاتنا بعد الوفاة ، فنمنع ونمنع بالوقف والوصية ، ونترك البغض والكراهية بين الوارثين ، ثم نشرط

الشروط والقيود على الزوجة بحيث لا تستطيع أن تأكل لقمة مما خلفنا الا اذا حرمت نفسها الاستمتاع بالزواج .

حبذا هذه الوصية التى تركها هاينيه تنبه الانانيين الى قيمة السخاء فى النفس ، والى أننا حين نترك الدنيا يجب أن نخلف وراءنا جوا من الخير والحب بدلا من هذه القيود التى يتألم منها الاحياء حين يكون واضعوها عظاما رميمة فى القبور .

وهذا السلوك الذى يأخذ به بعض الازواج فى مصر ، حين يشرطون على الزوجة الا تتزوج بعد وفاتهم والا حرمت الميراث هو فى صميمه ذلك الاسلوب الشرقى الذى كان يعم اقطار اسيا مثل الصين أو الهند حين كان الاباء الصينيون واليابانيون يبيعون بناتهم . أو حين كانت الارملة الهندية يطلب منها ان تحرق نفسها عقب وفاة زوجها . واذا كان هناك اختلاف بيننا وبين آسيا فهو اختلاف الدرجة فقط . وفى قرى الصعيد لا يزال الزوج ينادى زوجته بقوله « يامرة » فقط . بل احيانا نرى نعى المتوفين فى الصحف فنجد أن الزوجة توصف بأنها «حرم» فلان كأن ذكر اسمها عار .

وعجيب ان يبقى مركز المرأة فى مصر على هذا الانحطاط بعد الجهود العظيمة التى بذلها قاسم أمين وهدى شعراوى ودرية شفيق وآلاف الطبيبات والمحاميات والمعلمات والممرضات والممثلات اللائى خرجتهن جامعاتنا فانتشرن فى آفاق وطننا وملأنه بالخدمة البارة .

لقد عرفت هدى شعراوى وتعقبت نشاطها الاجتماعى وتضحياتها العظيمة ، ومنشآتها العديدة لخدمة المرأة ، ووقفت ذات مرة فى مقر جمعيتها وناديت بحق المرأة المصرية فى انتخابات البرلمان ، وكان مما قلته ، ولا يزال صحيحا للاسف ، ان للفراش الذى يكنس هذه القاعة التى ألقى فيها كلمتى ، حق

الانتخاب ، ولكن سيدته التى انشأت هذه القاعة والتى هو موظف عندها ليس لها هذا الحق .

ولو اننا كنا على شئ من التقدير والشكر لهدى شعراوى لما كنا توانينا فى تعيينها وزيرة ، وكان هذا العمل جديرا بأن يرفع اسم مصر الى مصاف الامم العصرية .

ومما يؤسف له كثيرا أن المجلس البلدى الجديد للقاهرة لم ينص فى قانونه على حق المرأة فى الانتخاب له ، كأننا مصرون على أن نحرمها حقوقها الديمقراطية . وكذلك فعلت لجنة الدستور

وذكرت الصحف قبل أيام أن بعض الطالبات فى الجامعة أردن أن يترشحن فى انتخاب الاتحادات ، فرفض طلبهن ، ومن قبل ذلك طلبت احدى آنساتنا المحاميات أن تلتحق بوظيفة فى النيابة العامة فرفض النائب العام طلبها

وهذه المواقف جميعها تدل على أننا مصرون على أن نبقى أمة شرقية نقول بسيادة الرجل ونرفض المبادىء الديمقراطية التى تقول بها ، وتعيش على أساسها جميع الامم العصرية

ان عندنا فى الوقت الحاضر نحو ألفى طالبة فى الجامعات ، وعندنا نحو خمسة آلاف طالبة فى المدارس الثانوية ، وبدهى أن هذه التربية التى يحصلن عليها تؤهلهن لان يدرسن مشكلاتنا الداخلية والخارجية أكثر مما يستطيع الفلاح المصرى فى حالته التعسة الحاضرة ، ونحن نفقد مقدارا عظيما من الذكاء والوطنية والثقافة بحرمانها حق الانتخاب للبرلمان وللمجالس النيابية

***

وأثمن العواطف البشرية هو الحب . ولكن الحب يحتاج الى التكافؤ . ولا يمكن شابا أن يحب فتاة الا اذا أحس أنها على مستواه الاجتماعى أو قريبة منه . فاذا احتقرنا المرأة وجعلناها دونا فى المقام الاجتماعى فاننا باحتقارنا هذا ننزل بالحب الى الحضيض بل

نكاد نلغيه . ولا يمكن أن نقول عن الصعيدى الذى ينادى زوجته بقوله : « يا مرة » أنه يحب زوجته هذا الحب الذى يحس به الرجل المستنير الذى عرف زوجته قبل الزواج واحترمها لمكانتها الاجتماعية وتربيتها المدرسية أو الجامعية

ان الاول قد يشتهى زوجته ويستخدمها ولا يحس أنه يحتاج الى أن يتفاهم معها أى ليس بين نفسيهما أنسة . أما الثانى فانه يجعل حبه تفاهما بل هو يوقن أن هذا التفاهم أساس الحب بينه وبين زوجته

وهذه الاستهانة بالزوجة ، وهذا الاسراف فى الطلاق ، وهذا الجموح الى الزواج بثانية أو ثالثة ، بل هذا الحرمان للبنات فى الميراث ، وأخيرا هذا النفور من منح المرأة حق الانتخاب والترشيح للبرلمان ، كل هذا برهان على أننا مازلنا شرقيين مثل الصين والهند واليابان قبل أن تتخلص هذه الامم نفسها من هذه العادات الشرقية

ان عاطفة الحب سوف ترتفع فى مصر حين تأخذ المرأة المصرية مكانها الاجتماعى لانها ستحترم عندئذ . والاحترام أعظم ما يهيىء للحب الشريف

كيف نصادق زوجاتنا ؟

الصداقة ضرورية لكل انسان ، اذ أننا نجد من الصديق سلوى ومؤانسة وانحيازا نحتاج اليها فى حالى الضيق والسعة على السواء .. ونحن نتخير أصدقاءنا عادة بحيث يتفقون معنا فى الرأى ، أو يتكافأون معنا فى الثقافة وأسلوب العيش .. وبعيد أن نصادق من نختلف معه فى كل هذه الاشياء

وكثيرا ما نتجنب حتى أقرباءنا بل اخوتنا اذا وجدنا اننا لسنا واياهم على وفاق فى أسلوب العيش أو الرأى ، أو العقيدة ، أو الثقافة ، أو الدرجة الاجتماعية

وفى مصر حيث لايزال الاتجاه العام يميل الى تمييز الشاب على الفتاة فى التعليم ، نجد أن التكافؤ الثقافى بين الزوجين معدوم وأن الهوة بينهما كبيرة ، ومن ثم تكاد تنقطع بينهما أسباب الصداقة

والرجل قد يعيش مع زوجته نحو أربعين أو خمسين سنة . وليس هذا العيش سهلا اذا لم تكن هناك صداقة تربطهما . ولذلك غالبا مايتجه الرجل الى خارج بيته حيث الاصدقاء من الرجال يقاعدهم فى المقهى ، أوفى النادى ، ويجد فيهم بديلا من الزوجة .

وفى أوربا تتعلم المرأة كالرجل تقريبا ، ولذلك يتكافأ الزوجان فى الثقافة ، فتصبح المرأة واذا بها ليست زوجة فحسب ، بل صديقة لزوجها أيضا . يشتاق كل منهما الى رؤية الآخر ، ومجالسته ، ومحادثته ، ويخرجان معا ، ويقرآن الكتب التى يشتريها أحدهما معا ، ويناقشان موضوعاتها معا .

والى أن نصل الى هذه الحال ، أى الى أن نسوى بين تعليم الشاب والفتاة ، بلا تفرقة أو تمييز ، نحتاج ، نحن الازواج ، أو المرشحين للزواج ، الى أن نرفع زوجاتنا الى مصفنا فى

الرأى والمعرفة والثقافة ، وليس هذا بالامر الشاق كما يتوهم القارىء

والمهندس مثلا لايحتاج الى تعليم زوجته دقائق الهندسة الآلية أو الكيماوية .. والمحامى ليس بحاجة الى أن يشرح لزوجته فقه القانون الرومانى .. والطبيب لايحتاج الى أن يدرس لها الفسيولوجية .. ليس هذا ضروريا وان كنا قد رأينا أزواجا استطاعوا ان يشركوا زوجاتهم حتى فى هذه الاشياء الفنية !.

لسنا فى صداقتنا لزوجاتنا، نحتاج الى كل هذا وانما نحتاج الى أن نتحدث اليهن عن شئوننا المهنية ، حتى نثير استطلاعهن ونبعث فيهن الشوق الى التعرف على أعمالنا

وأولى من هذا وأسهل أن نجعل الجريدة ، والمجلة ، والكتاب بعض أثاث البيت ، نشتريها فى عناية ، ونختار منها الاحسن والانفع ونقرأها مع زوجاتنا ونناقش مافيها من شؤون سياسية او اجتماعية . وبهذه الوسيلة يتقارب الزوجان تقاربا ذهنيا ، ويتفقان على مبدأ فى الرأى والعقيدة

وقد يقول القارىء ان الحديث عن السياسة او قراءة الجريدة ليس كل شىء فى التكافؤ الثقافى الذى يؤدى الى الصداقة . ولكن هل هذا القول صحيح ؟

أليست السياسة كل شىء فى أيامنا هذه ؟ أليست هى التى تسيطر على حديثنا وتثير اهتمامنا؟

والكلام فى السياسة هو فى عصرنا هذا حديث فى العلوم ، والاجتماع ، والاقتصاد معا .. فالقنبلة الذرية ، والغلاء ، والاستعمار ، والانقسام الدينى فى الهند ، وأثمان البترول ، والتأمين من المرض ، والطيران ، واضراب العمال ، كل هذا وغيره قد أصبح من صميم السياسة

ومتى شرعت الزوجة ، التى لم تلق عناية كبيرة قبل

الزواج بتعليمهـــا ، فى قراءة الجريدة مع زوجها ، ووجدت منه المفسر والموضح الذى يستخلص لها العبرة ، فلن تمضى سنوات حتى تكون على تكافؤ يكاد يكون تاما مع زوجها ، نورا وعرفانا ورايا واطلاعا . وعندئذ تسعد هى بصداقته كما يسعد هـــو بصداقتها

أعرف رجلين يختلفـــان فى المهنة وأســـلوب العيش تزوجا أختين على قدر متساومن التعليم. وهو تعليم ابتدائى قليل النفع سريع الزوال . ولكن أحـــد الزوجين جعل زوجته شريكته فى المجلة والجريدة . والآخر لم يبال هذا الاشتراك . وقد مضـــت عليهما الى الآن نحو ١٥ سنة، فماذا كانت النتيجة ؟ الاولى تقرأ وتناقش وهى صديقة زوجها ، عندما يقعد اليها يجد ان الحديث يرتفع من القيل والقال الى موقف ترومان وايزنهاور ، واتجـــاه الوفد فى المعاهـــدة ، وموقف روسيا والقنبلة الذرية ،والفرق بين حزب العمال وحزب المحافظين فى الاستعمار الخ .

أما الاخرى فقد نسيت القراءة تماما ، ولذلك هجرها زوجها الى المقهى ، وأخذ يعيب عليهـــا جهلها !

ولاشـــك ان المـــدارس فى المستقبل ، ستغنينا عن هـــذا الجهد عندما تعنى برفع مستوى الزوجـــة الى مســـتوى الزوج بمحـــو الفـــروق التعليميـــة بين الجنسين . ولكنا الآن فى حاجة لأن يعنى كل زوج منـــا بزوجته حتى يعلمها ، ويثـــير اهتمامها ، ويوقظ ذهنهـــا .. وخير الوسائل الموقتة لذلك هى الجريدة والمجلة .. والمجهود الذى يبـــذله الزوج فى هـــذا السبيل ليس مجهودا ضائعا ، وحسبه أنه بذلك يكسب صداقة زوجته ، تلك الصـــداقة التى تفسح له آفاق السعادة الزوجية والهناء العائلى .

مجتمعنا الانفصالى

نحن أقل مسرات ومباهج من الاوربيين لأن هؤلاء يلقون الدنيا فى صراحة أكثر منا . ونحن بالمقارنة اليهم نوارب وندارى كأننا ملوثون بتهمة نخشى أن تفتضح. يعيش رجالنا منفصلين من النساء لهم مجتمعهم الخاص ومسراتهم الخاصة فاذا كانت هناك علاقة بين الجنسين فهى ليست علاقة الانسة والرفقة والزمالة الاجتماعية كما هى الحال فى الامم المتمدنة . وانما هى العلاقة الفطرية البدائية التى قد ترتقى أحيانا الى أنسة اجتماعية محدودة بالبيت . ولكن ما أصغرها وأضيقها .

كل هذا لأننا نعيش فى مجتمع انفصالى ، الرجال ينفصلون من النساء .

والآثار التى يخلفها هذا الانفصال لا تقدر . فان الزمالة الزوجية التى تعد شرطا ضروريا للحياة السعيدة بين الزوجين ليست من المعجزات التى تباغتهما منذ العرس . لان هذه الزمالة تحتاج الى مرانة قد حرمها شبابنا وفتياتنا لأننا حرمنا الاختلاط بينهما قبل الزواج . فأصبح كل منها منكفئا على نفسه له عقلية خاصة واحساسات نفسية خاصة كأنه مخلوق من كوكب آخر . ولذلك يلتقيان بعد الزواج وهما غريبان يحتاج كل منهما الى مجهود جديد للتوفيق فى الحياة المشتركة الجديدة .

والأوربيون يختلطون . يتعلمون وهم صبيان فى مدرسة واحدة . وأحيانا يتعلمون معا أيضا فى المدارس الثانوية . أما الجامعات فالتعليم على الدوام مشترك لا ينفصل فيه جنس عن آخر . وهذا الى الاختلاط بالضيافة التى لا تنقطع . ولذلك ينشأ الشبان والفتيات على دراية ومعرفة فاذا دخلوا فى بيت الزوجية كان دخولهم على نور وهدى وليس بمثابة الكشف عن أرض مجهولة كما هى الحالة الأسيفة عندنا .

ومنع الاختلاط بين الشبان والفتيات يعقب أثارا من الامراض النفسية يعرفها الدارسون لهذا الموضوع . لان هذا الفصل يجنح بالشاب أيام المراهقة الى الاستسلام للخيال الذى لا ترده ولا تحده حقائق الاختلاط ولمس الواقع . فهو ينتقل من خيال الى خيال . ويشطح ويتطوح الى أن يجد نفسه يوما وقد بعد الى منأى تخصب فيه الشذوذات الجنسية التى يشق عليه ، وأحيانا يستحيل ، أن يتخلص منها حتى بعد الزواج .

ونحن الرجال نحتاج على الدوام الى الاختلاط بالجنس الآخر منذ نولد الى أن نموت . لأن أقل مايقال فى تبرير هذا الاختلاط أنه هو الوضع الطبيعى الذى يجب ألا يناقضه وضع اجتماعى . والشاب المختلط ، زيادة على أن غرائزه تبقى سليمة بعيدة عن الشذوذات ، يرقى شخصيته بالاختلاط بالجنس الآخر . اذ هو يعنى بلباسه ولغته وصحته لأنه يحب أن يبدو فى أحسن مايستطيع حتى يجلب الاعجاب والرقة من الجنس الآخر . بل هو يرقى ذهنه ويربى حواسه لهذا الغرض أيضا . ونحن نستطيع بالفراسة السيكلوجية أن نعرف الشاب المنفصل الذى لم ترتق نفسه وحواسه وذهنه بالاختلاط الجنسى

وأول ما نجد فيه اهمالا فى هندامه اذ هو لا ينتظر اعجابا ولا يتكلف عناية لجلب هذا الاعجاب من الفتاة . وهو يؤمن بالشهوة لا الحب . لأنه لم يسامر قط فتاة ولم يعرف قط أن للفتيات ميزات روحية ونفسية وثقافية وذوقية وأنهن يمتزن أيضا بالشجاعة والتضحية والشرف .

ومثل هذه الحال التعسة تكون أيضا عند الفتاة المنفصلة مع الاختلاف الذى تقتضيه ظروفها . بل هى أتعس من الشاب لأن حبسة البيت أسوأ أثرا هنا . والشاب مع انفصاله لا يحبس فى بيته . ولذلك تفقد الفتاة حيويتها ويستولى عليها جمود ينقص أن

لم يلغ جاذبيتها . مع أن مواهبها الطبيعية فى الجمـــال قد تكون كبيرة جدا . ثم تسودها عقليـة المنع والانكفاف . لأن الاحجـام المادى يتشعع من بؤرته فى البيت الى ألوان من الاحجـــام الذهنى والنفسى : « يجب ألا تنظـــرى ويجب ألا تقرئى ويجب ألا تعرفى» الخ .

ولعلى أكون قد بالغت فى وصف المساوىء التى تعود من الانفصال بين الجنسين لأن الحدود والسدود قد تحطمت الى حد ما . ولكن يجب أن نسلم أنها مع الاسف لا تزال قائمة فى كثير من أوساطنا . وهى أحيانا ، مع تحطمها فى الواقع المادى ، لا تزال قائمة فى بعض الاذهان والنفوس .

يجب أن نعد الاختلاط جزءا من تربيتنا العامة وأن ندعو الى التعليـم المختلط فى المـــدارس الابتدائية والى تشجيع الضـــيافة الراقيـة بل أيضا الى غشـــيان المطاعم والمقاهى العامة مختلطين .

وعندما ينتقل مجتمعنا من حال الانفصال الى حال الاختلاط سوف نحس أننا أمة متمدنة . وسوف يربينا الاختلاط ويحدث بيننـا زمالة واحتراما ، ثم يؤدى الى الحب . أجل هذا الحب المكشوف الصريح الشريف الذى لا يحتاج الى اختلاس النظـر من ثقـــوب الأبواب وخروم الأستار .

الحياة الفنية للمرأة

كل ما قلنـــاه عن الرجل فى الفصول السابقة ينطبق أيضا على المرأة وقد نبهنا عن ذلك فى كلامنا عن العائلة والمجتمـع . ولـكنا نحتاج مع ذلك أن نعالج الحيـاة الفنية للزوجة لأننا فى مصر قد ورثنا من التقـــاليد أخطاء كثيرة ألغت المرأة من مجتمعنـا وكادت تغيبهـا عن احســاسنا . وقد كوفحت هذه التقاليد بتعميم حرية المرأة ، وانتشار المدارس الى حد بعيد . ولكن لا يزال لهذه التقاليد رواسب اذا لم ترتفع الى احساسنا الذهنى فانهـــا لا تزال تصـبغ عواطفنا وتؤثر فى حياة المرأة .

والحياة الفنية للمرأة تقتضى أن تعمل كالرجل . فتحتـرف حرفة ما ترفعهـا من الانثوية الى الانسانية وتربيها طوال العمـر وتحملها على النمو والايناع النفسى ، كما تقتضيها الاتصال بالرجال . ونحن الرجال لا نستطيع أن نتخيل أنفسنا منفصلين عن المجتمـع قد حرمنا الحرفة لأننا نعرف أننا فى هذه الحال نسقط سقوط اليأس الذى لا ننهض منه . ذلك لأن الحرفة والمجتمع يربياننا وهما من أكبر الدوافع لارتقائنـــا الذهنى والنفسى بل والجسمى .

وقليل من المقارنة بين امرأة لزمت البيت وحرمت المجتمـع ، وأخرى عملت فى حرفة واختلطت بالمجتمع ، مدة عشر سنوات مثلا ، يوضح لنا مقدار الفرق العظيـم بينهما . فان قيم الحياة الى حد عظيم قد ألغيت عند الاولى بينمـاهى قد روعيت عند الثـــانية . ولذلك بينما تركد الاولى وتسمن وتترهل لقلة حركتها ، ولضيق آفاقها الذهنية والنفسية ، تنشط الثـــانية فى عملهـــا وتستبقى نحافتها وعضليتها وتتسع آفاقها الذهنية والنفسية

وليس لأحد منا أن يؤمل فى القريب أن تستوى المرأة بالرجل فانها لم تصل الى هذه الحال فى أوربا وأمريـكا الى الآن . ومع

أن قوانين الدول هناك تنص على المساواة فان قواعد المجتمع تأبى هذه المساواة . وفى مصر لا تزال الحرفة مكروهة عند المرأة وكثيرا ما تخرج منها عندما تلوح لها الفرصة للزواج كما نرى فى بعض المعلمات مثلا . ولذلك فاننا عندما نعالج مركز المرأة فى مصر نتجه الى البيت كأنه كل شىء . وهو ،فى وضعها الاجتماعى القائم عندنا، يكاد يكون كذلك . وانما الذى ننساه هو أن البيت للمرأة وليست المرأة للبيت ، أى يجب أن يعد البيت لراحتها ورقيها وسلامتها ولا يضحى بها من أجل الطبخ والكنس والغسل فيه .

والبيت فى مصر كثير الاعباء مرهق التكاليف كثيرا ما يشغله الورشة فى ارهاقه وتعدد واجباته الصغيرة . كما لا يزال المطبخ والمغسل ورشتين صغيرتين لاينقطع العمل منهما طوال النهار وبعضا من الليل . وربة البيت مضطرة الى الاشراف عليهما اذا لم تباشر بنفسها العمل فيهما . وهى فى كلتا الحالتين تقتطع من وقتها وفراغها ما كان أحرى أن تنفقه فى ترقية شخصيتها بالدراسة والاختلاط والانتفاع المثمر بالفراغ

وتستطيع المرأة المصرية أن تنتفع باختبارات المرأة الاوربية هنا فان هذه تخص يوما أو يومين للخروج مع زوجها وأولادها والغداء أو العشاء فى المطاعم . كما أنها تخص يوما أو يومين فى الاسبوع لتناول الاطعمة المعلبة التى تستغنى بها عن الطبخ . والخروج الى المطاعم يتيح الاختلاط كما أن اقتناء العلب العديدة الوفيرة للأطعمة يتيح الفراغ الذى تستخدمه ربة البيت فى تثقيف ذهنها أو فى أى استمتاع آخر

ولذلك ارتقت بعض المطاعم فى أوربا حتى ليصح أن يقال أنها ليست لتزويد زائريها بالطعام فقط . اذ لا يخلو مطعم منها من جوقة موسيقية ، كما أنها فى ترتيب موائدها واختيار آنيتها

وتزيين جدرانها والتأنق فى الطبخ تبلغ القمة . وتداول الطعام فيها ليس لتوخى الشبع ولكنه قبل ذلك متعة فنية أنيقة . وكثيرا ما تعود الزوجة من المطعم وقد درست درسا نافعا فى طبخ أحد الالوان أو ترتيب المائدة ، وهذا الى فوائد أخرى فى الاختلاط بالاصدقاء أو الاستماع للموسيقا

كما أن الاطعمة المعلبة تتنوع وتتعدد الى حد لا نتخيله فى مصر حيث نكاد نقتصر من هذه الاطعمة على السردين . فانهم فى أوربا وأمريكا يعلبون جميع اللحوم والخضراوات والاسماك فتستطيع ربة البيت أن تحضر طعام اليوم كله دون أن تحتاج الى طبخ . بل أن كيزان الذرة الخضراء نفسها توضع فى علب . وزيادة على هذا تباع الفراخ منظفة فلا تحتاج الى عناء الذبح والتنظيف فى البيوت كما هى الحال عندنا حيث نشترى الفراخ حية ونذبحها ونحيل المطبخ بريشها وأحشائها الى مزبلة تجذب الذباب الذى يتفشى بعد ذلك فى الغرف الاخرى من البيت

واذا شئنا الترفيه عن المرأة المصرية فى البيت ، حتى تجد الفراغ الذى تحتاج اليه كى ترقى شخصيتها وتنير ذهنها وتوسع آفاقها ، فاننا يجب أن نعاونها على ذلك بغشيان المطاعم والاعتماد على الاطعمة المعلبة واحالة الغسل الى المغاسل كما نحيل الكى الى المكاوى . وبهذا تخف أعباء البيت التى ترهق فى الوقت الحاضر آلافا من نساء الطبقة المتوسطة .

وبالطبع لا ننسى هنا كثرة الاولاد أى الاسراف فى التناسل الذى يرهق الامهات ويستنفد كل مجهودهن بحيث لا يبقى لهن من القوة ما يتوفرن به على عمل آخر . وقد توافرت وسائل الضبط للتناسل كما أصبحت مأمونة . ولا عذر للزوجين فى اهمالها لأن هذا الاهمال سينعكس أثره فى الزوجين اللذين سوف تصدمهما حقائق الحاجات الاقتصادية فيعجزان عن توفير

الصحة والتربية للأولادبل أيضالهما. لأنهما هما أيضا فى حاجة الى صحة وتربية

وعلى ذلك نقول أن الحياةالفنيةللمرأة، اذا لم تكن تعمل مستقلة، أى طبيبة أو معلمة أو ممرضة أوتاجرة ، تحتاج الى الاقتصاد فى عمل البيت من ناحية ، وفى عددالأولاد ، من ناحية أخرى .

العادات

نحن نعيش بالعادات . عادات العمل وعادات الفكر . ولكل منا عاداته الخاصة ، الحسنة أم السيئة ، فى المشى والحديث والأكل والتفكير أى أنه يتخذ أسلوبا أو أساليب فى كل ما يعمل . وهذه الأساليب تلصق به طوال عمره .

وقد كان ولنجتون يقول عن العادة أنها ليست طبيعة ثانية كما هو المثل الجارى اذ هى تزيد على الطبيعة عشر مرات .

وعادات التفكير لا تقل خطورة عن عادات العمل . فان الناس يختلفون تفاؤلا أو تشاؤما بالدنيا وصروفها لعادات فكرية تعودوها لا يطيقون التخلص منها . وكلنا يعرف ذلك الشاب الذى يتسم بالتهكم أو المزاح فيثقل علينا باستصغاره لكل ما نفعل أو يملأنا طربا بنكاته ونوادره . وهناك بالطبع ذلك الآخر الذى تعود الوقار فيكاد يجهل الضحك . ثم هناك آخرون قد تعودوا الانتقاد أو حتى المناقرة فهم على الدوام فى موقف المعارضة والمناقضة . ثم هناك ذلك الذى تعود المخاصمة فلا نعرف كيف نحادثه لأننا نتوقع منه كل وقت لوما لنا فى غير ما نستحق أن نلام عليه .

وجمع هذه الأخلاق عادات ذهنية يتعودها أحدنا ، فى الغالب ، أيام طفولته فتثبت ولا تتركه طوال حياته .

ولكن كما تثبت العادة السيئة كذلك تثبت العادة الحسنة . ولذلك يحتاج كل منا ، كى يعيش فى اقتصاد ذهنى وجسمى ، وفى ملاءمة بينه وبين الوسط الاجتماعى أو المادى ، أن يتعود العادات الحسنة أى عادات الاكل الصحى والدراسة الدائمة والعمل المجدى والتسلية المرقية والمعاملة أو المعاشرة الاجتماعية التى تنأى عن الشر والعبث .

ومهزة العادات ، زيادة على أنها تثبت وتلصق بنا ، أنها تجعل

العسير من الأعمال سهلا محببا الى النفس . وصحيح أن عاداتنا العامة التى تحرك غرائزنا وتنشط عقولنا تأتينا عفوا بعضها أيام الطفولة وبعضها بعد ذلك. ولكن ليس معنى هذا أننا نعجز عن تكوين العادات الحسنة أى نكونها بارادتنا وعلى معرفة تامة بمنفعتها وضرورتها لنا .

والهدف الذى نقصد اليه من تكوين العادة ، أن نقتصد فى مجهودنا حتى نستطيع أن نؤدى مقدارا من العمل أكبر مما كنا نؤديه قبل أن تتكون العادة وتستهلك من قوتنا أقل مما كانت تستهلك .

والرجل الحكيم لا يترك نفسه يعيش عفوا كأنه مسوق بالظروف والصروف . اذ يجب أن يعيش قصدا بأهدافه وعلى تقدير لمواهبه وكفاءته واستغلال لهما بما يجعل حياته مجدية ان لم تكن سعيدة. وهو محتاج ، لهذا السبب، الى أن يتعود العادات الحسنة التى تعاون على رقيه وتطوره .

وأول ما نحتاج اليه فى تكوين عادة ما أن نقتنع بفائدتها وضرورتها لنا . وهذا الاقتناع ليس محض الميل والاتجاه . اذ يجب أن نعين الفوائد التى تعود علينا كتابة مع التفصيل الذى ربما يحتاج الى مراجعة وتفكير وتنقيح . أى أننا يجب أن نحس أننا لم نأخذ بهذه العادة الا بعد حكم قد وصلنا اليه عن دراية ويقظة . واننا بنينا هذا الحكم على أسباب قوية وتحقيقات دقيقة قد اقتضاها « تصميم » حياتنا .

فاذا اقتنعنا بفائدة العادة شرعنا فيها . وحسبنا من هذا الشروع أن نعمد الى يومنا ، أى هذا اليوم ، الى ممارسة العادة . ثم نجدد العزم كل يوم على هذه الممارسة الى أن يؤدى التكرار الى ثباتها . ولا بد من المثابرة بحيث لا يفوتنا يوم الا ونحن فى ممارسة لها .

وواضح أننا عندما نختار عادة يجب أن تكون فى مستطاعنا حتى لا تتجاوز طاقتنا . ثم يؤدى عجزنا الى تركها .

مثال ذلك : نفرض أن أحدنا قد بلغ الثلاثين وهو يجد انه مقصر فى الدراسة وان رملاءه قد سبقوه فصار لهم مقام وحققوا كسبا ونالوا أمانى لم يحصل هو عليها لتقصيره فى الدراسة . وانه ينوى أن يتعود عادة الدراسة

فأول ما يعمد اليه أن يعين هذه الدراسة ويوضح الاسباب التى تدعوه اليها . ويوضحها كتابة مع التفصيل والمراجعة حتى يقتنع بضرورتها .

ثم يبدأ اليوم ، هذا اليوم ، فى هذه الدراسة .

ثم يثابر . والمثابرة هنا تعنى أنه لا ينقطع .

وهو محتاج الى تشجيع . وقد لا يجد هذا التشجيع من اخوانه . وعليه عندئذ أن يسجل نجاحه يوما بعد يوم لان هذا التسجيل يوضح له الخطوات التى خطاها نحو تحقيق أهدافه . فهو يزيده حماسة ونشاطا واقبالا .

وقد ذكرنا الدراسة باعتبارها احدى العادات التى يجب على الشاب أن يتعودها . ولكن العادات الحسنة كثيرة . لأننا محتاجون الى عادات الرياضة البدنية ، والمحادثة بكلمات كريمة ، والاعتدال فى الطعام مع التأنق الذى يقتضيه التمدن ، وأمثال ذلك مما قد تصغر قيمته عند ما نتأمله عملا منفردا ولكن تكبر قيمته عندما نتأمله عادة متكررة ، اذ قد يسهل علينا ان نتحدث الى أحد الناس فى لغة كريمة وكلمات أنيقة اذا قصدنا الى ذلك وتكلفنا . ولكن لا يسهل أن نفعل ذلك مع جميع الناس على سبيل العادة عفوا وسماحة . وكثير من النجاح يعزى أحيانا الى مثل هذه العادات .

لقد عرفت رجلا نال منصبا عاليا كان يحتاج الى دراسة

مستفيضة ومعارف عميقة لم تكن فى طاقته . ولكن هذا النقص قد داراه سلوكه الشخصى : أدب فى الكلمة والايماءة، وكراهة بل نفور من العيب فى أحد ، ومواظبة على العمل ، ومعونة عاجلة لجميع أصدقائه . وجميع هذه العادات أصبحت جزءا من جهازه النفسى والذهنى فلم يكن يحس أية مشقة فى القيام بها . وكانت هى السبب الاول فى نجاحه وبلوغه منصبا من أكبر مناصب الدولة .

التخلص من العادات السيئة

العادة كالنار اما خادمة حسنة واما سيدة مؤذية ، وكثيرا ما تتسلط علينا عادات تتملكنا وتستبد بنا فنؤديها خاضعين ونحن على مضض من الحاحها وعلى معرفة بما تبددة من قوانا وحيويتنا

وكثير من عاداتنا السيئة يعود الى اهمال أبوينا فى تربيتنا حين عودونا التدلل وكراهة الاستقلال أو الخوف والاحجام أو حتى كراهة بعض الاطعمة ، فانى أعرف رجلا بلغ الستين ولم يذق الجبن فى حياته . وكراهته لهذا البروتين الثمين ترجع الى أيام طفولته حين أهمل أبواه تعويده تناول هذا الغذاء . وقد خسر كثيرا فى صحته وماله بهذا الحرمان . كما أن هناك ناسا قد بلغوا الاربعين أو الخمسين اذا رأيناهم يأكلون اشمأززنا من الاسلوب الذى يتبعونه بالعادة فى تناول الطعام ومضغه

واتجاهاتنا وميولنا هى عادات كامنة توجهنا نحو الجد أو المزاح . ونحو التشاؤم أو التفاؤل . ونحو الاقدام أو الاحجام وهى عادات نفسية لا تختلف عن عاداتنا الجسمية ، فى غسل الوجه أو السير فى الشارع أو التحية لصديق . وهى ، أى هذه العادات النفسية ، تعين سلوكنا وتصرفنا

وبالطبع هناك عادات خطرة كالتدخين أو الشراب أو أسوأ من هذا ، كالمخدرات والشهوات الشاذة ، ونحن لا نعالج هنا هذه العادات اذ هى تحتاج الى تحليل نفسى كى نصل الى الازمات والتوترات التى أحدثت الالتجاء الى هذه العادات فرارا من الواقع المؤلم

وقد يكون التدخين أخفها فلا يحتاج الى تحليل . لان الأغلب أن الشاب يقع فى هذه العادة لرغبة ساذجة فى تكوين شخصيته وتأكيد رجولته . ولكن ادمان التدخين يدل على توتر نفسى يحتاج الى التحليل

وفى ابطال العادة ، كما فى تكوينها ، نحتاج ، قبل كل شىء ، الى الاقتناع . وهذا الاقتناع يحتاج الى توضيح العناصر كما لو كنا ندافع عن متهم ونوضح عناصر البراءة . وذلك كى نبنى الاقتناع على أسباب وجيهة . فاذا تم لنا ذلك فلنشرع فى التنفيذ ونقنع منه بيوم واحد . يوم واحد

فالمدخن الذى ينوى ابطال التدخين يحتاج الى ايضاح الاسباب كتابة ، لهذا الابطال ، ثم عليه أن يقرر العزم على الامتناع يوما واحدا لا أكثر . فاذا تم له هذا اليوم فعليه أن يقرر هذا اليوم وعليه أن يسجل هذا الانتصار ، كتابة أيضا ، ثم يجدد العزم على يوم آخر ، وكلما مضى يوم ضعفت العادة وتراخت قبضتها على خناقه

ويجب على المدخن أيضا أن يستعين بالوسط . أى يغير الشارع الذى تعود أن يشترى منه . أو لا يأخذ مؤونته اذا كان على قصد الابتعاد عنه أو نحو ذلك . ثم يجب المثابرة فلا يخرم يوما يعود فيه الى عادته لان هذا اليوم وحده قد يفسد جميع أيام الحرمان السابقة أو يلغيها

واذا وجد الشاب أنه مع ذلك عاجز عن ابطال العادة السيئة فعليه بالتحليل النفسى حتى يصل الى الاصول الثابتة فى كامنته «عقله الكامن» فيكشفها وينفضها فى الهواء . وعندئذ يسهل الابطال .

ولكن العادة تحدث فى النفس شهوة . وابطالها كظم لا يطاق . وكثيرا ما رأينا آثار هذا الكظم فى مدمن الخمر حين يتأخر عن ميعاد شرابه . فانه يقلق فى مكانه . وقد يرتعش أو يعرق أو يغضب وهذا لانه كظم الشهوة للشراب ساعة أو أقل أو أكثر فقط ، فكيف بالابطال التام ؟

يجب على المدمن أن يأخذ بعادة أخرى قريبة أو مناسبة للعادة السابقة التى أبطلها حتى تجد شهوته المكظومة المنفس والمخرج

كالقهوة بدل التدخين أو الالعاب الرياضية بدلا من القمار أو الطعام قبل ميعاد الشراب بربع ساعة مثلا حتى تمتلىء المعدة فلا يساغ الشراب كثيرا . واذا لم تنجع هذه الوسائل للاقلاع عن عادة سيئة فيجب ، كما قلنا ، الالتجاء الى التحليل النفسى . واذا لم يكن هذا متيسرا فلا بأس من الاعتماد على ما يسمى «الانعكاس المعدول» أى ايجاد مركب نفسى سيىء كأن نحقن شريب الخمر بحقنة مقيئة قبل الشراب ثم نأذن له بكل ما يهوى من شراب كما وكيفا حتى اذا جرع كاسين أو ثلاثا ألفى نفسه فى غثيان وقىء . فاذا صحا صار لا يشتهى الخمر الا وفى نفسه هذا الجزع من الغثيان فيكره الخمر . وهذا هو ماتفعله الأم مع طفلها الرضيع حين تحتاج الى فطامه فانها تطلى الحلمة بسائل مر فيكره الطفل الرضاع لانه يقرن المرارة الى الحلمة .

ولكن المرارة للحلمة ، والغثيان وقت الشراب ، كلاهما عمل سلبى أى أنه يكف ويزجر . والحاجة تدعو هنا الى عمل ايجابى يغرى ويجذب . وهو عند الأم تقديم طعام سائغ للطفل . وكذلك يجب أن نقدم شيئا للسكير له قيمة نفسية ترفيهية تقوم مقام الخمر . ولكل انسان ظروفه التى تعين العلاج . فقد يعالج أحدهم بالرفقة المنعشة مع احد الاصدقاء وقد يعالج آخر باهتمامات لذيذة تملك نشاطه وتوجهه

وحياتنا كلها سلسلة من العادات الجسمية والذهنية والنفسية فاذا قصدنا الى ان نجعل حياتنا فنا جميلا فاننا نحتاج الى تعود العادات التى تؤدى الى الاقتصاد فى مجهوداتنا كما نحتاج الى عادات التأنق ، نتأنق فى لباسنا وطعامنا وتصرفنا ، حتى نجعل الكيف يأخذ مكان الكم . فنطلب الكمال فوق الضرورة ونقصد الى الجمال فى كل ما نتوخى من وسائل أو غايات .

ويجب أن نذكر أن العـــادة الحسنة تقينا من العادة السيئة لانها تستغرق الوقت والجهد اللذين تحتاج اليهما العادة السيئة . فانى مثلا لم أعرف التدخين أو لعب الورق لانى شغفت بالقراءة منذ كانت سنى ست عشرة سنة فالوقت الذى استغرقته القراءة حال دون توفير الوقت الذى كان يحتاج اليه التدخين أو اللعب

عادة القراءة

تحدثنا فى بعض الفصول السابقة عن القيمة العظمى لعادة القراءة . ولكننا مع ذلك نحتاج الى التوسع فى ايضاح هذه القيمة وهذا الكتاب الذى نتوخى فيه جعل الحياة فنية يجب أن يحوى فصلا عن القراءة . لان القراءة وحدها تجعل الحياة فنية فى الكثير من معانيها اذ هى ترفع القارىء من الاعتبارات المحلية ومن الضرورات المعيشية الى قيم بشرية سامية والى كمالات وتأنقات ذهنية لا يحصل عليها الأمى أو ذلك القارىء الذى يحيل نفسه الى أمى لانه يكره القراءة

وفى أيامنا يعد توافر الكتب والمجلات والجرائد من أعظم انتصارات الحضارة العصرية . لانه قد جعلنا ، بالقراءة المثابرة ، على دراية دائمة بعصرنا ودنيانا فاتسعت آفاقنا الفكرية والعاطفية وحفلت حياة القارئين باهتمامات جديدة ومتجددة لم يكن آباؤنا يعرفون شيئا منها . فاذا لم تكن حياتنا أطول من حياتهم فانها ، على الاقل بالقراءة ، أعرض وأعمق منها .

وواضح أننا نقصد هنا القراءة المنيرة المنبهة لا القراءة المظلمة المخدرة . فان هناك قراء وقارئات يشترون المجلة كما يشترون اللب أو اللبان للتسلية وقتل الوقت كما أن هناك مؤلفين قد زودوا السوق «الادبية» بهذه المخدرات التى تبنج العقل وتلغى الضمير واليقظة

ولكن القارىء الذى يعنى بحياته يأبى التخدير لانه لايحب أن ينسى أنه حى ، وهو يقرأ كى يزيد حياته حيوية وليس كى ينام ويتخدر . وهو يزداد بالقراءة سرورا واحساسا بالنمو . وقراءته دراسة مقصودة مرتبة على مراحل حياته كأنها البرنامج للنمو والتطور . والقارىء الذى يحس بعد سنوات من دراسته أنه لم يتطور يحتاج الى المراجعة والتساؤل . لان أغلب الظن أنه

أساء فى اختيار الكتب وانغمس فى دراسات جامدة لا تبعثه على الرقى أو النمو أو التطور

والقراءة الجزافية سيئة وهى كالأكل الجزافى . لاننا نحتاج فى الحياة الفنية الى التنظيم والترتيب ووضع البرامج كى تتفتح الميادين الجديدة . فالرجل المستنير لا يرضى لنفسه هذه الايام أن يعيش على هذا الكوكب دون أن يحاول الوقوف على ماهية الطاقة الذرية كما لا يرضى لنفسه أن يجهل نظرية التطور ، التطور الطبيعى والتطور الاجتماعى

وهناك عشرات من الموضوعات الحيوية التى لا يجوز لمستنير أن يهملها . وهى تستغرق الحياة كلها . بل أن المتعودين للدراسة يجدون أنهم فى شكوى دائمة من قلة الوقت . ولذلك لا يعرفون السأم واهتماماتهم متعددة متجددة

والحياة الفنية تتجه نحو العناية بالفنون الجميلة قبل كل شىء أى بالادب والشعر والموسيقى والرسم وما الى ذلك . لان هذه الفنون تزيدنا تأنقا فنتوخى الجمال فى تصرفنا كما نتوخاه فى بيئتنا . ولكن التعمق يقتضى ألا يقف أحدنا من الدراسة موقف القارىء المطالع القانع بزيادة معارفه . اذ يجب أيضا أن يشترك ايجابيا فى ثقافة معينة تكون عنده كالبؤرة الاصلية التى تتشعع الى ثقافات فرعية عديدة . وهو يحسن اذا مارس الكتابة عما يقرأ . يشرع ولا فى مراسلة بعض المجلات ثم يرتقى الى كتابة المقالات أو القصص القصيرة ثم الى التأليف اذا استطاع ذلك . ولكن يجب على كل حال أن يحاول الكتابة التى تزيده ارتباطا بالثقافة وتحمله على زيادة البحث والاستقصاء لما يدرس

وثم اعتبار آخر فى قيمة القراءة أو الدراسة للحياة الفنية هى أنها أعظم الوسائل للاحتفاظ بشباب الذهن فى الشيخوخة . فالشاب الذى تعود قراءة الجريدة والكتاب أيام شبابه ثم واصل

هذه العادة فى كهولته وشيخوخته يحتفظ بالكلمات ماثلة حية فى ذهنه حين تتبلد العواطف فلا تحرك الذهن الى التفكير والاهتمام بل حين تأخذ خلايا المخ فى التدهور وتعجز الشرايين الدقيقة المتصلة عن تغذيتها وتنظيفها . ففى هذه الحال يرافق الشيخوخة نسيان للكلمات يؤدى الى تعطيل للتفكير . ولكن عادة القراءة كل يوم تجعل الكلمات ، كما قلنا ، ماثلة . ومتى مثلت الكلمات مثلت الافكار . فيبقى الذهن شابا حيا وتعود الشيخوخة حافلة بالاهتمامات حتى ولو بلغنا التسعين أو المائة . وترى هذا واضحا فى جميع الادباء أو العلماء الذين لم ينقطعوا عن الدراسة فى شيخوختهم اذ فى الوقت الذى يجد فيه غيرهم أن ذهنه قد تبلد وجمد ، أو حتى خرف ، يجدون هم أنهم لا يزالون يقرأون ويكتبون كما لو كانوا فى الشباب . وقليل منهم من يمتاز بشرايين طرية أو صحة عامة تختلف عن سائر الناس . ولكن ميزتهم الوحيدة هى الميزة اللغوية اذ قد احتفظوا بالكلمات فاحتفظوا بالمعانى أيضا وبقيت الافكار حية عندهم تحركهم الى النشاط والاهتمام

ولذلك تعد القراءة خير مانهيىء للشيخوخة . ويجب ألا يقل الاهتمام بها عن الاهتمام بالصحة الجسمية . بل ربما كانت هى أهم وأنجع لاستبقاء الحيوية عند المسنين . وعندنا من الامثلة فى مصر ما يبرهن على صحة قولنا . ففى هذا الوقت الذى أكتب فيه هذه الكلمات (١٩٥٣) يعيش الاستاذ احمد لطفى السيد فى الثمانين وهو يستمتع بذهن يقظ وشباب عجيب لانه لم ينقطع يوما عن القراءة الجدية . فالكلمات (أى الافكار) ماثلة فى ذهنه تبعثه على اهتمامات ثقافية مختلفة وهو دائب البحث فى اللغة والادب والفلسفة والسياسة

ولذلك نحن على حق حين نقول أن صحة الذهن للمسنين أهم من صحة الجسم . ومداومة القراءة اليومية هى خير مايؤدى الى صحة

الذهن . ونستطيع أن نذكر عشرات من المسنين استبقوا بالقراءة شباب أذهانهم . ولكنا نحب أن نغير كلمة القراءة ، فنقول: الدراسة . لاننا نقصد الى الجد والترتيب ووضع البرامج للتوسع الذهنى ، ولا نقصد الى القراءة التى تقوم مقام أكل اللب أو مضغ اللبان .

والبيت المتمدن فى عصرنا هو البيت الذى يعرف أن أفخر ما فيه من أثاث انما هو الكتب ، لانها غذاء نفوسنا وعقولنا التى هى أحق بالعناية من بطوننا . ومن عجب أن هناك من يعد نفسه متمتعا بحياته لانه يأكل أفخر الاطعمة ويلبس أجود الملابس ولا يدرى أن المتع البشرية السامية تتجاوز هذه الحاجات المادية الى الوقوف على ذلك التراث البشرى العظيم من مؤلفات أفلاطون الى صلوات اخناتون الى فلسفة بوذا الى دراسة الكتب المقدسة الى تواريخ الاديان وحياة القديسين الى حقائق العلوم وتطورات الامم وغير ذلك . واى شىء من أثاث المنازل عند المليونيين فى المال ، يعادل الذهن المؤثث بالاختبارات والنظريات والافكار التى تبسط تاريخ المستقبل فضلا عن تاريخ الماضى ؟ وأى شىء أثمن من تراث الفنون والآداب وبلاغة النثر والشعر مما خلف الادباء والشعراء

والقيم البشرية تعد على الدوام فى المرتبة العليا بالمقارنة الى القيم الاجتماعية . ولذلك لايمكن ان يقارن الثراء والوجاهة والمال وترف المنزل والمعيشة بالذهن الثرى بالثقافة المتمرن على التفكير اليقظ بالضمير العالمى . وذلك الشاب الذى يهمل تعود الدراسة ويبخل فى شراء الكتب والمجلات ويؤثر عليها الرياش النفيسة أو اكتناز المال . انما يبخس نفسه التى هى أولى من اى شىء آخر بالانفاق بل بالاسراف فى الانفاق .

البيت متحف

البيت من اخص الاشياء التى نملكها . فقد نقتنى اسهم الشركات او مئات او آلاف الجنيهات، أو قد نشترى ضيعة نستغلها ونعيش فى احدى المدن من غلتها ولكن ليس لواحد من هذه المقتنيات تلك العلاقة الحميمة التى تربطنا بالبيت . لان له خصوصية بنا ليست لغيره . ونحن نقضى فيه معظم نهارنا وجميع ليلنا ونعاشر فيه أولادنا وزوجتنا ونجد فيه الراحة والاستجمام بعد كد النهار . كما اننا نطبع عليه شخصيتنا لاننا نتخير له الاثاث ونتأنق فى ترتيبه. ومن هنا هذا الحنين الذى نحس به عقب اغتراب عنه بضعة أسابيع او اشهر ولو كان هذا الاغتراب فى مصيف او مشتى للراحة والاستجمام .

وعند بعض الناس يعد البيت مأوى او مطعما . ولذلك سرعان ما يتركونه الى المقهى أو النادى او الحانة حيث يجدون رفاهيتهم مع الاصدقاء او فى لذة الشراب . ولكن هؤلاء البعض ليسوا فى الغالب على حال سوية نفسية اذ هم يكظمون اشياء من علاقة زوجية سيئة الى قلق اقتصادى او حرفى أو نحو ذلك . ولفرارهم من البيت معنى رمزى يسهل تفسيره بالتحليل النفسى .

والبيت مشتق لغة من فعل « بات » أى أمضى الليل . وهو بهذا الاشتقاق يدلنا على الضرورة الاولى التى اقتضته . ولكن الانسان فى طورنا الحضارى لا يقنع بالضرورات اذ هو قد سما الى كثير من الكماليات . وهو يطلب من البيت اكثر من المأوى والمطعم . وقد نصحنا فى فصل سابق بأن يجنح الزوجان من وقت لآخر الى المطاعم العامة وبأن يحال غسل الملابس الى حيث تغسل بالاجر بدلا من احالة البيت الى ورشة للغسل والطبخ طوال اليوم .

والوضع الاجتماعى القائم يجعل البيت المكان الطبيعى

للمرأة . وليست الحال كذلك للرجل . ولكنا نبالغ فى تأكيد هذا الوضع حتى لكأن المرأة قدخلقت للبيت . وليس العكس. وهذه المبالغة تنتهى بأن نجعل من البيت محبسا لها يفصل بينها وبين النشاط الاجتماعى الذى يجب ان تدخل فى غماره وتتأثر به وتؤثر فيه . اذ هى قبل ان تكون « ربة بيت » ، انسان ، له مركزه الاكبر فى هذه الدنيا قبل مركزه الاصغر فى البيت .

وهناك فرق بين السرور والسعادة . الاول مادى بشأن المواد التى نقتنيها ونستمتع بها . والثانية فكرية بشأن الغايات والمثليات . ولكن ليس شك فى أن أقرب المسرات الى السعادة هو الحياة العائلية السامية . لان البيت مادة وفكرة اى انه مأوى ومطعم ومتحف كما هو عائلة تقوم على علاقات روحية وتهدف الى مثليات وتحقق أمانى كثيرا ما تحملنا على أسمى المجهودات . والبيت أيضا يمتد بنا الى المستقبل عن طريق الابناء

والبيت السامى العصرى هو معهد حر يجد فيه اعضاؤه حرية الفكر تسود جميع المناقشات النيرة فى ديمقراطية اجتماعية وتربية ذهنية وأخلاقية . وهو وحدة المجتمع الذى تتألف منه الأمة . وكل عناية بالبيت انما هى فى النهاية عناية بالاخلاق الحسنة والسلوك البار لان الاطفال عندما يشبون يعاملون أفراد المجتمع بالقيم والاوزان التى تلقوها فى البيت ايام طفولتهم .

ثم نحن نعيش فى البيت نحو سبعين سنة اى نعيش هذا القدر بأجسامنا ولكنا نعيش بنفوسنا أكثر من هذه السنين لاننا نحس نفسيا ان عائلتنا منا وان حياتنا مندغمة فى حياة افرادها ، سلفا وخلفا ، ولذلك يمتد احساسنا للبيت الى مقدار من السنين يتجاوز حياتنا ، وهذا الاحساس يجعلنا نستهين بأى

مجهود لترقية البيت .

ثم للبيت خصوصية بنا كأنه البذلة التى نلبسها على قد قامتنا نعنى بتفصيلها حتى تتخذ قسمات اعضائنا مع ماقد يكون بها من نقص . ولذلك تحن نؤثر البذلة التى فصلها الخياط على بذلة جاهزة قد اخذ القياس فيها بالتعميم وطراز السن وليس بالتخصيص والعناية الخاصة بكل فرد .

ويعد البيت لهذا السبب « مركبا » نفسيا والحنين اليه أحد مظاهره . وقد وجد البيت لذلك حرمة فى كثير من الامم المتمدنة . فلا يجوز للدائن بيعه او بيع أثاثه مهما بلغ الدين الذى يحمله صاحبه . كما قد اجازت الامم امتلاك المسكن الخاص فى المبنى العظيم الذى قد يحوى عشرين أو ثلاثين شقة . وذلك تشجيعا لهذه الخصوصية التى تحمل صاحب البيت على الارتباط والعناية به . لانها لحظت ان للبيت اثرا تقويميا للاخلاق . فكما ان المتزوج أقل جرائم واستهتارا من العزب لارتباط الاول بزوجته ، كذلك صاحب البيت اقوم اخلاقا ممن لايملك بيتا لمثل هذا الارتباط .

وفن الحياة يقتضينا ان ننظر الى الحياة نظرة فنية فنختار الاثاث فى دراية وعناية مع الاستقلال حتى ولو خالفنا العرف فى هذا الاختيار . لان العرف بطبيعته طراز تعميمى . ولكن الشخصية المستقلة تطلب التخصيص والانفراد . والبيت يتسع للاتجاه الفنى حتى يعود بالتأنق متحفا . وكثير من البيوت التى امتاز أصحابها بالثراء قد صارت متاحف . ولكنها مع الاسف متاحف قد أسىء فيها الاختيار . حيث اخذت الابهة المطهمة مكان الفن الانيق

ولكن مع ذلك يجب ان نعترف ان الثراء فى أيامنا يستطيع ان

يجذب الى البيت أفخر الاثاث الذى يضع تصميمه ويرسم مواصفاته فنانون فقراء . ولذلك يشق على غير المتيسرين أن يجعلوا الفن سائدا فى بيوتهم فضلا عن احالتها الى متاحف .

فهناك آنية فنية معجبة تزدان بها الموائد عند الاغنياء ولا يستطيع غيرهم شراءها . وقل مثل هذا فى سائر الاثاث او بالاحرى معظمه . ونقول فى « معظمه » لان كثيرا من الاثاث الغالى فى الثمن لانجد فيه غير الابهة السخيفة مع القبح العظيم لان الذين صنعوه قصدوا الى كثرة النفقات التى تبرز وفرة المال عند المقتنين لهذا الاثاث دون الالتفات الى التأنق الفنى

نذكر من هذا سريرا رأيناه من النيكل له قبة كأنه أريكة جنكيزخان او عرش تيمورلنك . وكل مافيه من ميزة انه يباع ببضع مئات من الجنيهات .

وكم قد رأينا من مقاعد مذهبة وكنبيهات منجدة ومناضد ومرايا متعددة حتى ليدخل احدنا منظرة الضيوف فيحس كأنه فى قاعة أثاث قد عرضت أشياؤها للمزاد، لان الوفرة الثرية قد اخذت مكان الاقتصاد الفنى

والفن أيسر من هذا . ولكنه مع ذلك لايتوافر لغير المتوسطين المدبرين الذين يختارون عن دراية وفهم . وليس هذا شاقا اذا جعلنا همنا فى جمع الاثاث ممتدا على سنى العمر ، أى لانشترى اثاث البيت دفعة واحدة كما هو المألوف فى بلادنا بتجهيز العروس بأثاث بيتها . لاننا حين نفعل هذا نجمع الاثاث فى عجلة وفقا لطراز العصر اوالسنة . وقد يكون طرازا سيئا أملته نزوة وقتية زائلة . وانما يحسن ان نختار الاثاث قطعة بعد أخرى مع التغيير الذى يقتضيه ارتقاؤنا الفنى على مدى السنين .

ويجب ان نقتنى اجود الاثاث فلا نتسامح فى الجودة والقيمة

الفنية . وهذا ميسور مادمنا لانزحم انفسنا ونرهق جيوبنا في شراء مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وبذلك تجمع تحف الآنية والرسوم والكتب وسائر الاثاث . ويعود البيت متحفا جميلا يحوى افخر ما أخرجته حضارة فرنسا والصين والمانيا ومصر وغيرهن .

واذا كان رب البيت او ربته على شيء من ثقافة معينة استطاعت ان تجعل البيت متحفا لثقافتها . وكثيرا مايدخل احدنا بيتا لأحد المثقفين فيجد فيه الطرف العجيبة التى اكتشفها من أحجار أو محار أو معادن او احياء أو غير ذلك . وهذا بالطبع لايتفق لكل منا .

ولكن الشيء المهم الذى نقصد اليه ان يجد البيت منا عناية فنية فى تأثيثه . وان ننظر اليه كأنه متحف عائلى يجمع طرف الجدود والاحفاد فيتخذ بذلك سمة من سمات الخلود فلا يكون مادة فقط بل فكرة ايضا

البيت للضيافة

للبيت خصوصية عائلية حميمة يحس بها أعضاؤه فيما يشبه المؤامرة . ذلك ان لهم أسرارا وأهدافا واساليب يتفقون عليها في مجتمعهم الصغير ولا يفشونها لغيرهم . وهذه الخصوصية تربطهم وتزيد احساسهم العائلي .

ولكن البيت يجب ألا يستأثر بعلاقاتنا الاجتماعية . ومهما تمتدح ارتباط الابناء بالآباء والزوج بزوجته ، ومهما يكن الجو العائلي من حيث التعلق الحميم بين اعضاء البيت ، فان البيوت تحتاج الى تهوية اجتماعية بالضيافة والزيارة . والمبالغة في الارتباط العائلي هي شطط الفضيلة ، فضيلة التعلق العائلي التي تعود رذيلة

ولكل فرد منا حياة سرية او كالسرية كأنها العقل الكامن في النفس يوجهنا من حيث لا ندري، ولكل منا ايضا حياة اجتماعية علنية كأنها الضمير الذي ينتقد ويحاسب ويراجع .

والحياة السوية هي تلك التي تصالح بين العقل والضمير وتوفق بينهما ، ففي البيت نحن نختمر ونتهيأ . وفي المجتمع نحن نتكشف ونباشر . ويجب لذلك أن نعنى بالضيافة والزيارة لانهما وسيلة الاتصال بين البيت والمجتمع

يجب أن نعنى بالبيت أجل العناية حتى نجعله متحفا يحوي تراث الجدود وطرف الحضارة وألوان الرفاهية . ولكن يجب أن نتوقى حبسة الجدران لانها تحبس النفس عن التوسع والنمو والترقي .

ولذلك نصحنا بضرورة الخروج من وقت لآخر الى المطاعم العامة أو المتنزهات الخلوية . ولذلك نصحنا أيضا بضرورة التخفيف من أعباء البيت حتى لا يستحيل الى ورشة لا ينقطع العمل فيها للطبخ والغسل

والضيافة من الفنون الراقية التى يجب أن نفصلها من فضيلة الكرم . ذلك لاننا نقرن الكرم الى الموائد المطهمة وألوان الطعام السخية .

ولكن الضيافة العصرية بعيدة كل البعد عن هذا الشره المادى . لان هدفها ترقية العائلات بالتعارف والتنوير بالحديث والمناقشة .

وفى مدينة مثل القاهرة حيث تتعدد المطاعم وتختلف على موائدها الالوان لايكون من مفاخر ربة البيت أن تعد لضيوفها مائدة يتوسطها الدندى وتحتشد عليها اللحوم والحلويات . ويستطيع وجيه فى الريف أن يزودنا بهذه المائدة المادية ولكنه يعجز عن أمتاعنا بالضيافة المهذبة المنيرة

وخير من العناية بالطعام أن نعنى بالاثاث فى أيجاد مقاعد مريحة للضيوف لا تكون للزينة ولكن للراحة . فاننا كثيرا ماندخل أحد البيوت فلا نجد غير تلك الكراسى الواقفة التى نقعد عليها وكأننا وقوف . وكأن المقصود منها الا نطيل القعود .

ولذلك يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة الكرم الشرقى حين نفكر فى الضيافة الراقية ... وصحيح أنه لابد للضيافة من شىء أو أشياء من الطعام والشراب . ولكن يجب أن يكون ذلك فى حدود التعقل والاعتدال . لاننا حين نستضيف أو نستضاف نؤثر غذاء النفوس على غذاء البطون ونهوى الاستماع الى حديث يعلمنا وينيرنا كما نحب لقاء الشخصيات الفذة التى لايتيسر لنا لقاؤها الا فى مثل هذه الفرص

ولذلك يجب أن ندرس فن الضيافة باعتباره جزءا خاصا من الحياة العامة . فنعين للعائلة يوما كل أسبوع للضيافة ونجعل الشاى أو المثلجات مع القليل من الاطعمة الخفيفة كالسندويتش

كل مانقدمه للضيوف . وتقديم الشاى خير من أعداد العشاء ، ذلك لانه يتيح سهرة طويلة تبدأ من الساعة الخامسة وقد تنتهى فى الساعة التاسعة أو العاشرة ثم هو لايبهظنا بنفقاته فيثبطنا عن المواظبة .

ويجب أن يكون للضيافة الحسنة بؤرة تجمع الضيوف . وقد يكون رب البيت أو ربته هذه البؤرة اذا كان أحدهما ممتازا له مكانة اجتماعية أو ادبية أو اختبارات نشتاق الى الوقوف عليها . كأن يكون أحدهما عضوا فى جمعية أو مؤسسة لها نشاط معين . ولكن اذا لم يكن هذا ميسرا فأن من الحسن أن تدعى شخصية ممتازة أو ترتب محاضرة فى موضوع يهتم له الضيوف . ثم يتناقش الضيوف . ولسنا نقصد الى أن نقول أنه يجب ايجاد محاضر فذ فى كل ضيافة . فأن هذه الحال المثلى لاتتوافر على الدوام ولكن ربة البيت المستنيرة التى تتجه هذه الوجهة تستطيع فى غياب المحاضر أن تجعل الحديث يدور حول موضوع سياسى أو اجتماعى يشغل الضيوف ويهمهم

والضيافة ، كما قلنا ، تهوية اجتماعية للبيت . وهى تحرك أعضاء العائلة والضيوف الى مايشبه المباراة الفنية فى الزى واللغة والشخصية . كما انها ، أى الضيافة ، تربى أبناء البيت الناشئين على المؤانسة الاجتماعية فلا ينمو الصبى ، ثم الشاب ، فى حياة أنفرادية معزولة . وقد ينشأ لذلك فجا مربوك الحركة ثقيل اللسان لايعرف كيف يتحدث الى آنسة او كيف يشترك فى سمر مهذب منير

وهناك كتب كثيرة فى اللغات الاجنبية تصف فن الضيافة سواء من ناحيته المادية بتهيئة الطعام والشراب الخفيفين أو ناحيته الاجتماعية بايجاد الوان من السمر المسلى .

وفن الضيافة يقتضى العناية باختيار الاصدقاء والمحافظة على صداقتهم . فأن الاهتداء الى صديق والاستمتاع بصداقته طوال العمر أو معظمه هما حظ عظيم ومتعة سامية لمن يوفق اليهما . والصداقة لاتنهض ولاتحيا الا على أسس من العلاقات الروحية التى أثمرها أشتراك فى الثقافة أو الاهداف والمثليات الاجتماعية .

وليست القرابة شيئا يقاس الى جانب الصداقة . لاو مصادفة الميلاد التى تجعل من هذا الشخص شقيقا أو خالا أو أبن عم لاتكفى وحدها لتعارف العمر . أذ كثيرا ماينتهى الاقرباء بالدم الى أغراب بالاتجاه الاجتماعى أو الثقافى . ولكننا حين نعرف صديقا نجد عنده نزاهة الضمير ونور العقل ، هذا الصديق هو جوهرة العمر التى يجب ألا نفقدها . واذا كانت الضيافة تعثرنا على مثل هذا الصديق فأنها تكون عندئذ قد فتحت لنا بابا من أبواب السعادة الدنيوية .

البيت معهد حر

البيت فى الاقطار المتمدنة فى أوربا وأمريكا معهد حر لاتسوده سلطة الاب الاتوقراطية . ينشأ فيه الاولاد فى مجتمع راق يختلطون بالضيوف ويجدون فى هذا الاختلاط تنويرا وتدريبا على المعاملة والايناس والحديث ، والكلمة العذبة ، والعبارة المهذبة ، كما تجد الزوجة فيه مجال الترقية شخصيتها بما تتحمل من تبعات نحو زوجها وأولادها وبما تجد فى ضيوفها من ميزات تنقلها عنهم .

وكلمتا البيت والعائلة تندمجان فى معناهما . والبيت الامثل هو الذى تسود المساواة فيه أعضاء العائلة ليس بين الزوج وزوجته فقط بل بينهما وبين الاولاد .

واذا كان هؤلاء فى سن صغيرة يحتاجون الى الارشاد فأن هذا يجب أن يكون خاليا من الاستبداد والتسلط . لاننا يجب أن ننشد مبادىء الثورة الكبرى ، أى الثورة الفرنسية ، فى البيت قبل أن ننشدها فى المجتمع . أى يجب أن نعمم مبادىء الحرية والاخاء والمساواة بين أعضاء البيت قبل أن نعممها فى المجتمع

ويجب أن يتمرن أعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطى فى البيت قبل أن يمارسوه فى المجتمع . لان البيت الديمقراطى هو الاساس للمجتمع الديمقراطى

وأعظم مايكون الشخصية فى الرجال والنساء هو الحرية . أى الحرية التى تلقى على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها .. فيؤدى تحملها الى نموهم . واذا انعدمت الحرية من البيت استحال الى سجن . وبعيد بل محال أن تتكون الشخصية فى السجن حيث لا مجال للحرية أى للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب ،

هذا الاحساس الذى ينشط الذهن والجسم ويحمل على التفكير والعمل .

وفن الحياة هو فى النهاية فن تكوين الشخصية الراقية . اذ ليس شيء أجمل فى هذا الكون من الشخصية اليانعة التى عاش صاحبها فى حرية الفكر والعمل وفى تحمل التبعات والواجبات حتى ارتقى وتدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته . فهو يسير فى الدنيا وهو على نور وفهم وأحساس.

ونحن فى مصر ، للعبء الباهظ الذى نحمله من تقاليدنا الماضية، نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود والحدود هنا وهناك أمام الاطفال والفتيات والسيدات . فلا تجد شخصياتنا التربية التى تؤدى الى انضاجها وايناعها . فينشأ الشاب وهو فى خوف للدنيا لايقتحم فى تفكيره أو عمله . وتنشأ الفتاة وهى محجمة متراجعة تلتزم الصمت والسكون والاستحياء والتراجع كأنما هذه خطة حياتها أو هى الاعتذار عن حياتها . فلا تحيا الحياة المليئة ولا تزدان برشاقة الايماءة ولباقة الكلمة ولاتستطلع ولا تدرس ولا تخطىء ولا تجرؤ ، ولذلك تخسر كثيرا من جمالها الروحى ، هذا الجمال الذى لايعوض منه جمال الجسم الذى يبدو عندئذ راكدا جامدا. وهو كذلك بالمقارنة الى الفتاة الاوربية التى تتذبذب حيويتها طربا فى شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا فى شجاعة وانطلاق واستطلاع فى حين تواجه فتاتنا المصرية دنياها فى تقلص وخوف من الاستطلاع . وذلك لان الاولى عاشت فى حرية فى حين عاشت الثانية فى قيود التقاليد .

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض فى البيت . واذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه فى الثقافة فيجب أن يدأب فى رفعها الى مستواه وأن يجعل من وسطه

الاجتماعى مايحملها على الارتقاء ، نعنى بذلك أن يختار من الضيوف والزائرين ، الذين يتبادل وأياهم الزيارة ، أولئك الاحرار المتعلمين الذين يخجلونها ويحضونها على ان تثقف عقلها وان تتجه الاتجاهات التى تزيد البيت فنا وجمالا كما تزيد حياتها نضجا وائناعا

وقد يتعب الشاب فى سنيه الاولى من الزواج وهو يوجه زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافأة بعد ذلك على هذا التعب فى سنوات عديدة من الهناء الذى تثمره مزاملة قائمة على المساواة الحقة فى الميزات والتأنقات الذهنية وفى تربية الضمير وانضاج العقل

أما اذا أهمل تثقيفها فأنه سرعان مايجد الانفصال الروحى قائما بينه وبينها بحيث يعيشان وكأنهما جاران يشتركان فى مأوى

وكما نخشى نحن حرية المرأة كذلك نخشى حرية الصبيان فنحرمهم ما لانحرمه حتى الحيوانات التى يتمتع أطفالها بالطفولة والصبا فنرهقهم بالدرس فى الوقت الذى تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة فى اللعب والمرح . بل أحيانا ، وحين يزورنا ضيوف ، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم التربية الاجتماعية الحسنة التى يستعيضون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا فى بيئة غير حسنة .

وشبابنا فى مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الاوربية ، وهم يقرأون القصص أو يرون المسرحيات السينمائية التى تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف فى حياة المتمدنين .. وينشأون على أستمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتعصبون لها فينكرون الحرية على المرأة والاولاد ويمارسون معهم حياة الانكفاف والاحجام ، تلك الحياة التى تجعلهم يعيشون فى نسك أو مايقاربه ، ويكرهون متع الحياة العائلية ويتوقونها .

أجل . أن شبابنا يجهلون أن الخادمة الاوربية تقتنى مكتبة فى غرفتها لاتقل مجلداتها عن مائتى أو ثلاثمائة مجلد وهى نصر على أن تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون أن الضيافة لاتنقطع فى البيت الاوربى الراقى وأن الاولاد يدعون أصدقاءهم الى ولائم فى البيت فيجدون التشجيع من آبائهم على هذا النشاط الذى يكسبهم المرانة الاجتماعية والضيافة الراقية . وان الاختلاط بين الجنسين لاينقطع منذ الطفولة الى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرب الفتى والفتاة على الرشاقة ويوجه الغرائز الجنسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات البشعة التى تفشو فى المجتمعات الانفصالية فى الامم الشرقية . فالحياة هناك أملأ وأمتع والشخصية أتم وأينع

أجل ليست الدنيا للناسكين المنكفين ، وانما هى للمقدمين المجربين الذين يستطلعون ويعملون . ونساء أوربا يعملن وينتجن ويختلطن . وهن بهذا السلوك يتكملن وينضجن . فالمرأة تبدو هناك وهى فى الثلاثين أنسانا قد جرب وعرف ، وأخطأ وأصاب واستطلع ودرس . فى حين أن المرأة عندنا تكون فى هذه السن قد التزمت البيت وارتضت حدوده وجدرانه فحددت بذلك أمداء عقلها ونشاط روحها وسجنت مواهبها وعطلت ضميرها .

يجب أن نعيش فى حاضرنا

نحن لا نعيش حياة واحدة لأن لنا حيوات مختلفة : حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة . ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا احدى هذه الحيوات . واذا فاتتنا حياة الصبا بلا تمتع ، واذا عوملنا فى أثنائها كما لو كنا شبانا، فاننا عندئذ نكون بمثابة من لم يحى حياة معينة كان من حقه أن يحياها اذ هى لن تعود .

ولكن هذا هو ما نرى فى عصرنا . فان كثيرا من الآباء يحرمون أبناءهم لذة صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب اعدادا للمستقبل . كأن الحاضر لا قيمة له ، وكأنه يجب أن يضحى به من أجل المستقبل ، كما يضحى بالصبا من أجل الشباب . وكثيرا ما نرى صبيانا بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة فى الدراسة اما بضغط آبائهم واما بترتيبات جهنمية قد اخترعها لهم ابليس حين يحضر المعلمون اليهم فى البيت ويقهرونهم على الدرس . مع أن هذه الفترة من العمر تنادى باللعب والمرح وبالتجارب التى يخترعها الصبى لفهم الدنيا . وليس من حقنا أن نحرمه اياها

وهنا نعود الى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . فان الاولى تطالبنا بمعاملة الصبى باعتبار أنه صبى فقط يعيش ويستمتع بحاضره . لأن هذا هو حقه الطبيعى . ولكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفكر فى مستقبله . ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمباراة العامة التى نتوهم أنها تسوده، نبالغ فى تفكيرنا الى حد القلق فلا نفكر فى منطق وتعقل ولكن فى خوف وفزع . ونسرف فى تأكيد الدراسة وحرمان الصبى هناء الصبا أى حرمانه احدى حيواته التى لن تعود اليه . ولو عقلنا لأحسسنا الاجرام الفظيع فى هذا العمل .

يجب ان نعيش فى حاضرنا

وليس من شك فى أن نظام المباراة الذى نعيش فيه ، والذى يسود مجتمعنا ، يجعلنا جميعا فى خوف دائم من المستقبل . ولذلك نكاد نقضى عمرنا كله فى التهيؤ لهذا المستقبل . وهذا الخوف يستحيل أحيانا الى قلق نيوروزى أى ارهاق نفسى نعجز عن تحمله . وهو يبدو فى خوف أو فزع . فان البخيل الذى يحرم نفسه لذة المتع الصغيرة وهو يجمع قرشا على قرش انما يفعل ذلك لمركبات نفسية هى فى حقيقتها أمراض يحتاج الى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التى تحمله على هذا البخل يجيب بأنه يخشى المستقبل ويتهيأ لليوم الاسود بالقرش الابيض . مع ان من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش الابيض المدخر مهما اشتدت الحلوكة فى هذا اليوم الاسود المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من خوف المباراة العامة التى لا تجعل أحدا مطمئنا على مستقبله فأسرف فى التهيؤ لهذا المستقبل . واتجه الوجهة النفسية التشاؤمية حتى صار البخل عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحياة التى قد تطول ولكنها تطول هزيلة بلا عرض أو عمق . والعادة لثبوتها تحرمه الترفيه عن نفسه مهما ساءت الاحوال .

ونحن جميعا نحتقر البخل . ولكننا ننسى أننا حين نحرم الصبى لذة صباه انما نتجه وجهة هذا البخيل فى الخوف من المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنا أحسن ساعاته لاقتناء العقارات والاثراء انما نتجه هذه الوجهة أيضا وان كنا لا نبلغ درجة البخيل فى الحرمان .

وفن الحياة يقتضينا أن نعيش فى حاضرنا فنتمتع بمتع الطفولة فى طفولتنا . ومتع الصبا فى صبانا ومتع الشباب فى شبابنا . ولا نؤجل شيئا من ذلك تهيؤا للمستقبل . لاننا لسنا واثقين من هذا المستقبل ثقتنا بالحاضر . فاذا حرمنا الشاب متع شبابه

بدعوى أنه يستعد للمستقبل فاننا لا نثق بأنه سيعيش الى هذا المستقبل المنتظر ٠

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعامى عنه ٠ ولكنا نعتقد أن من يعيش فى حاضره انما يعيش أيضا لمستقبله ٠ ونعنى المعيشة السليمة ٠ فان هناك فرقا بين اثنين يخافان المستقبل ٠ أحدهما يبخل ويقتر ويبالغ فى الحرمان والآخر يؤمن بأداء قسط سنوى لاحدى شركات التأمين مثلا

وهناك أيضا فرق بين تلميذ يدرس فى المدرسة ويلعب خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه، وبين آخر يرهق بتكاليف مدرسية أخرى فى بيته ، تراه قد حبس نفسه بعيدا عن والديه وأخوته وسهر الليالى ٠

والرجل السوى الذى تتزن أعصابه يكتسب من حاضره بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر اليه مطمئنا فلا يجنح الى التقتير ولا يهرول فى جهده لاقتناء المال

واذا عشنا فى حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهمومه ، وتمتعنا بمتعه فاننا بهذا السلوك نفسه ، نجدنا قد استعددنا للمستقبل ٠ فالرجل الذى تعود مثلا القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة والمجلة انما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك يتهيأ بها لشيخوخه يقظة بعيدة عن السأم والتبلد ٠

وكذلك الرجل الذى مارس عملا كاسبا وانتفع بالتأمينات المألوفة يسير نحو المستقبل فى طمأنينة ٠

أما اذا كانت الايام حبلى بمفاجآت ، كما رأينا فى الازمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة العاقل وفزع المجنون وتقتير البخيل ، كل هذا يستوى أمام تلك المفاجآت ٠ أى جميعنا عندئذ سواء ٠ وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد الى يد

الدولة أو يجب ذلك ٠

ومن المألوف أن نجد شخصا يكد متعبا مهموما فى اقتناء الثروة وفى نفسه شوق الى الاستمتاع. فهو يحلم بالبيت الذى سوف يبنيه أو ببضعة الفدادين التى سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة ٠ أو هو يحلم بالسياحة فى أوربا ٠ وقد يحلم أيضا باستمتاعات ثقافية مختلفة ويضع فى برنامجه شراء مكتبة تحوى آلاف المجلدات التى تنيره وتثقفه٠ ويحلم بكل ذلك وهو فى الثلاثين أو فى الاربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء كى يحققه وهو فى الستين ٠

ومثل هذا يجب أن نقول له :أنت مخطىء ٠ لأنك حين تصل الى سن الستين تكون العادات التى مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فيك فلن تستطيع تغييرها ٠ ثم وأنت فى الستين سوف تكون لك أذواق تختلف عما لك الآن وأنت فى الثلاثين أو الاربعين

ولذلك يجب أن تعيش فى حاضرك وتبدأ الآن فى استمتاعاتك وتحقيق أحلامك٠ ولا تؤجل متعك الى سنين قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها ٠ أو ربما تموت كفاءتك للاستمتاع بها ٠ اذ أن لكل سن متعها الخاصة ٠ فمتع الشباب غير متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة٠ ومتع الصبا كذلك غير متع الشباب ٠ ونشاطك الآن أضعاف نشاطك فى المستقبل وسوف يأتى عليك يوم وأنت فى الستين حين تكون قد جمعت المال والعقار ثم تحاول القراءة فيحول دون ذلك ضعف العينين ٠ ثم تحاول السياحة فيحول دون ذلك أمراض الكليتين. ثم تحاول الصداقة فلا تجد من يقدرك لضعف جاذبيتك ٠

أجل ٠ لا تنس المستقبل وفكر فيه ٠ ولكن تفكير العاقل الذى لا يضحى بحاضره من أجل هذا المستقبل

النمو والتطور

عندما نتأمل رجلا جامدا رجعياوآخر متطورا ارتقائيا نجد أن لكل منهما اتجاها قد عين له مزاجا خاصا . فالأول فى صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيرا من أى تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . فى حين أن الثانى، ذلك المتطور الذى لا يبالى التغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانته السياسية الاجتماعية . وهو يدعو الى نهضة ما فى السياسة أو الاقتصاد أو الى تغيير فى الأدب أو الاجتماع . ولذلك نستطيع، فى معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين ينشآن من الخوف .

وقد يكون المرجع والأساس لهذا الخوف أن الرجعى قد أسيئت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالكراهة والقسوة حتى صار بعد ذلك يجد أن السلامة والطمأنينة لا تكونان الا فى استبقاء حالته ، اذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، والا فى تجنب أى تغيير اذ هو يوجس شرا مما هو فيه .

والجامد الرجعى لا يحيا الحياة الطبيعية . لأن النمو والتطور من سنن الطبيعة التى تشهد بهما ألف مليون سنة من تاريخ الاحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان فى أعماق سريرتنا وأننا لن نعيش المعيشة السوية ولن نقارب السعادة ، أو على الأقل السعادة السلبية ، الا اذا كنا فى نمو وتطور لا ينقطعان طوال حياتنا .

بل أحيانا ، حين نتأمل أحلام اليقظة التى نستسلم اليها فى لذة ، نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة حميمة فى نفوسنا . أى أننا نحس أننا غير راضين عن حالتنا اذ ندأب فى التفكير فى تغييرها . وليس الايمان بالمستقبل، بل بالشجاعة والاقدام، سوى ايمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة والجمود

والرجعية سوى الجبن والخوف ٠ وكلاهما يحملنا على الركود والتقلص ٠

والأمم « الشرقية » لفرط ماعانت من مظالم ملوكها الباغين وأمرائها المنحطين وحاكميها الظالمين يغلب عليها الجمود اذ هى على الدوام متشائمة بالمستقبل تخشاه وتتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش فى الماضى ٠ أما الأمم الأوربية فتكاد ترقص للمستقبل وهى ترضى بالتغير والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهبا والتطور منهجا ٠

وليس من السداد هنا أن ننصح للقارىء أن يكون متفائلا وأن يتجنب التشاؤم ٠ لأن هاتين الحالتين قد تكونتا فى الأغلب منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكمت فملأت القلب شكوكا وشبهات بشأن المستقبل ٠ ولكن من السداد أن نبين أننا لن نستطيع أن نتطور ، أى نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم نكن متفائلين ٠ وعلى كل قارىء عندئذ أن يحلل تشاؤمه وخوفه وأن يعرف مرجعهما ٠ وهو اذا هبط على هذا المرجع عاد الى التفاؤل والشجاعة ٠

وأوضح المظاهر للارتقاء والتطور والنمو هو الثقافة ٠ وصحيح أن هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية أو سياسية فيبرزون فى هذه الجهات ويجنون منها ثمرات السرور ٠ ولكنها بالمقارنة الى الثقافة تعد ثمرات زائلة متقلبة ليست لقيمتها ثبات القيم الثقافية ٠

ذلك أننا عند ما نرقى بالثقافة ارتقاء نفسيا ذاتيا لا يستطيع أحد أو ظرف أن ينتزعه منا ٠ والنفس تتطور بالتغير الثقافى فتتجدد وكأنها تستعيد الصبا أو الشباب وتهبط على عوالم جديدة لم يكن لها بها معرفة من قبل ٠

والذى نحب أن نثبته ونؤكده أنه ما دمنا فى تطور ثقافى فاننا

نتجنب السأم والجمود والتبلدفتمتلىء الدنيا حولنا مباهج فلا يكربنا اليأس ولا نجزع من العجزبل نتحمل حتى الكوارث المرهقة ونتحداها ٠

واذا اعتدنا الثقافة فان الاغلبأننا نخرج منها بمذهب كفاحى للخير البشرى ٠ وهذا المذهبيغذونا وينير بصيرتنا عن دلالة الحياة كما أنه يوفر لنا اهتماماتلا تنقطع ٠ وما دمنا فى هذه الاهتمامات فاننا لن نحس هذاالسأم القاتل الذى يغمر حياة المنغمسين فى الملذات حين يأجمونهامتبرمين منها عازفين عنها

وفن الحياة هو ، فى معنى ما ،فن العيش فى سرور ان لم يكن فى سعادة ٠ ولذلك يجب أن نوفرلأنفسنا احساسات السعادة بايجاد وسائل الرفاهية الذهنيةوالمادية ٠

وعندما نعمد الىدراسة، نحسإحساسا عميقا بلذة التطور ٠ ولذلك نحتاج ، كى نوفرها ، الى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحلالحياة وتكفل لنا شبابالذهن وتجدده ٠

وكلما تقدمنا فى السن ، وخاصة عندما نتجاوزالستين، يتوانى نشاطنا وقد نتبلد أو نجمد ٠ولكن، اذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجا للحياة ، فاننانندخل فى دور الكهولةوالشيخوخة ونحنمستبقون لشبابنا مبتهجونبالدنيا قد احتفظنا بكلمات اللغة أى بالافكار ٠ وقد كررنا هذاالكلام ٠ ولكن مهما نكرره فاننا فى حاجة الى تأكيده اذ ليس هناكضمان للشيخوخة السعيدة الا مع الثقافة الدائمة التى تستبقى الذاكرة فى حيويتها الشابة ٠

وهناك ألوان من الارتقاء كثيراما نأجمها ٠ فاننا عندما نندفع فى اقتناء المال ، أو عند ما نبذلجهودنا كى نحصل على مركز اجتماعى كنا نطمح اليه ، نجد أنالهدف الذى وصلنا اليه دون ما أملنا وتمنينا من حيث قيمته فىجلب السرور الى نفوسنا ٠ الا

الثقافة وحدها فانها تملأنا غبطةولذة أكبر مما كنا نحلم به

ولعل مرجع هذا أن آفاق الثقافة واسعةمتشعبة ليستلها نهاية فى حين أن للمركز الاجتماعى أوالمالى نهاية . ولذلك لن نعـــرف السأم اذا جعلناغايتنا منالنشاطوالنمو ثقافية .

ان الثقافة هى نمو العقل، نموالنفس ، بعد أن يقف الجسم عنْ النمو الطبيعى . فنحن حين نقرأوندرس نهبط كل يوم على جديد نحس فيه التوسع والتعمق أى نحس النمو كأننا نكبر بعد صغر ونتسع بعد ضيق وننظر بعد عمى

إحساس القصد فى الحياة

الحياة هى الصحة ، وهى الوقت ، وهى الدراسة ، وهى الاستمتاع . وأخيرا هى احساس القصد بحيث لا نحيا سدى أو جزافا وانما نهدف الى هدف .

وحياة بلا صحة هى حياة ناقصة لا نحيا فيها أربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، لان عبء المرض يثقلنا . فنحن نسير فى الدنيا ببطء ونرتاح كثيرا ونلزم السرير ساعات أكثر مما كان يجب لو كنا على صحة تامة . وبكلمة يقل نشاطنا . ولذلك يجب أن نعرف أن التبذير فى الصحة هو تبذير فى الحياة .

وكذلك الشأن فى الوقت . فان اعمارنا محدودة . وقل من يتجاوز متا السبعين أو الثمانين . ولذلك يجب الا نستهلك وقتنا فى السخيف من الاعمال التى لا تثمر ولا تزيدنا نموا أو رقيا . وكثير من نشاطنا يذهب هباء . وهو بذلك ينقص حياتنا بحيث اننا نستطيع أن نقول لمن بلغ السبعين من العمر انه لم يعش سوى خمسين سنة ذلك لانه قضى عشرين سنة فى أعمال سخيفة ونشاط زرى لا يليق بالرجل العظيم . اذ أنه كان يقضى الساعات كل يوم فى العاب الحظ كى « يقتل » الوقت مع أن هذا الوقت هو بعض عمره أى انه لو كان قد تأمل لعرف انه كان يقتل عمره . أو هو كان يشغل ذهنه بالقيل والقال ومشاحنات القضايا فى المحاكم وقراءة المجلات الوضيعة ونحو ذلك .

والحياة هى الدراسة . لان أذهاننا يجب أن تسمو على التفكير الساذج . ويجب أن يكون لها نصيب من العلم والفلسفة والادب والفن . وحياة تخلو من هذه الشئون هى حياة رخيصة لا تستحق هذا المخ الذى يحوى تسعة ملايين خلية .

ونحن حين نبذر ونرسل نشاط هذه الملايين من الخلايا الى التافة السخيف من الافكار انما نكفر بالحياة .

وأخيرا الحياة هى الاستمتاع . وأجمل أنواع الاستمتاع هو الدراسة التى تنير ذكاءنا وتجعلنا نجلو عن هذا الكون غموضه فنفهم ونزداد بذلك انسانية وهو الحب للمرأة أو للابناء والطبيعة والشرف والعدل .

* *

عندما يشرع أحد الاثرياء فى بناء منزل يعمد الى أحد المهندسين ويكلفه وضع « التصميم » أى الرسم لهذا المبنى الجديد ، وهو يفعل ذلك اعتقادا بل يقينا بأن هذا المهندس سيراعى كل ما يحتاج اليه من الاقتصاد والراحة والجمال فى هذا المبنى .

ولم يعد أحد يبنى بلا تصميم ، ولم يعد أحد يعتمد على نفسه فى وضع التصميم . بل هو يبحث عن الخبراء ويؤدى الاجر العالى لهم راضيا لانه يعرف ان المنزل أو المبنى « المصمم » أى الذى رسم ودرس قبل البناء خير من المنزل أو المبنى المرتجل .

ولكن هذا الذى نفعله فى البناء نهمله فى الحياة . مع ان الحياة أثمن من البناء . وهى تحتاج الى الترسيم والتخطيط أكثر مما تحتاجه مدينة بأكملها .

وكثير منا يعيشون جزافا أو ارتجالا ليس لحياتهم برنامج أو هدف . وهم لذلك ينساقون بالحوادث بدلا من أن يسوقوا هم هذه الحوادث . والتقلبات تسيطر عليهم بدلا من أن يسيطروا هم عليها . وكثيرا ما أحس وأنا أنظر الى أحد هؤلاء ان الدنيا قد دوخته . فهو ذاهل خاضع ذليل . لم يفكر قط فى أن يرسم حياته بيده وأن يعين لنفسه هدفا وان يقبض على مصيره وأن يسلك السلوك الذى يصل به آخر العمر الى تحقيق شهواته

العليا بحيث يعود على تاريخه فيجد انه عاش العيشة المنظمة وأنه نما ونضج بسنى عمره فملأها بالاستمتاع والانتفاع .

ان الاهتمام بالمستقبل كثيراما ينتهى الى وسواس جنونى يحملنا على التقتير أو على ايذاء الصبيان بحرمانهم الاستمتاع بحاضرهم كى يعيشوا لمستقبلهم

ولكن الحكيم هو الذى يجعل حاضره ومستقبله كما واحدا . وهو لذلك يضع تصميم حياته فى تعقل بحيث لا يضحى بالحاضر للمستقبل أو العكس . وهذا التصميم يعين له الخطط والوسائل فى صيانة صحته وتكبير شخصيته وتأمين شيخوخته من المرض والفقر والجهل .

ويمتاز الحكيم من الاحمق بميزات كثيرة ربما يكون احساس القصد أعظمها ذلك انه يحياعن قصد ويرمى من جهوده الى هدف . فى حين ان الاحمق يعيش جزافا ينفعل بالحوادث ولكن الحوادث لا تنفعل به . فهو ينتقل فى عمره من عام الى آخر كأنه ذاهل ينساق بالظروف لا يجد لحياته دلالة أكثر من أنها عام ويمضى بل عمر ويمضى

ولكن الحكيم يحس القصد ويسير نحو الهدف . وهو يعين لحياته برنامجا يؤدى الى هذاالهدف . ويتخذ من أسلوب عيشه الوسائل التى تصل بهاليه بل وتجدده . وهو دائب فى السؤال : لماذا أعيش ،وماذا أتمنى ، وما هى بغيتى ، وما هو هدفى فى هذه الدنيا ؟

وهو بهذه الاسئلة يتجدد وينشط . وكأنه ، بتجديد أهدافه ، يولد جملة مرات ويحقق لنفسه عديدا من الشخصيات والافكار . وليس فى كل هذاما يمكن ان يوصم بالتقلب والتذبذب . اذ هو تطور الى أعلى والى أوسع .

ولذلك يجب ان يكون احساس القصد عميقا فى نفوسنا ، كما يجب ان تكون مراحل حياتنا نحو الاهداف اعلاما للتجـــدد والتطور .

وليس احساس القصد واجبا على الفرد وحده ، اذ أن الحكومات يجب أن تحس هـذا الاحساس أيضـــا ، بحيث يسأل الوزير نفسه عن « سبب وجـوده » فى مركـــزه وعن الاهـداف التى يتخيلها ويدرسها ويحاول تحقيقها لامته .

ولو كان احساس القصد عميقا عنـد الساسة الذين تولوا شئوننا من قرن لما كنا قد تورطنا فى الكوارث العـديدة التى مرت بنا ، والتى مازلنا نعـانى مغباتها المؤلمة .

وأعمار الافراد محدودة ولكن الدولة خـــالدة أو كالخالدة ، ولذلك عليها أن تحس القصد من وجودها وتعين أهدافها التى قد تتحقق بعد عشر سنوات أو مائة أو ألف سنة .

لقد كان دلسبس فى ١٨٦٩ يحس القصد حين حمل الحكومة المصرية على منحه احتكارا يعيش مائة سنة ولكن الحكومة المصرية لم تكن على مثل هذا الاحساس حين منحته هذا الاحتكار . ولذلك سعدت شركة القنـال وشـقيت الحكومة المصرية

وفى عصرنا هـذا ، بل منذ أكثـــر من قـرن ، عاشت أمم وحكومات شرقية بلا قصـــد ، عاشت جزافا تتخبطها الظروف وتسوقها الحوادث الى أن جاءتها حكومات غربية تعيش عن قصد وتعين أهدافها فتسلطت عليهـا وجعلتها المطايا الذلل التى تحقق هذه الاهداف .

ان احساس القصد ، فى الفرد والجماعة ، يحملنا على أن نرتب أذهاننا ونعنى بثقافتنا وأخلاقنا ونضع البرامج لحياتنا

يجب أن ندرس الطبيعة

هذه الكتب التى نجمعها ونتأمل ما فيها من أفكار الفلاسفة والادباء والعلماء هى كنز عظيم ٠وبيت بلا كتب هو صحراء قاحلة يحيا عليها بدو جهلاء

ولكن هناك كتبا أخرى يجب أن نقرأها فى الطبيعة، فى الارض، والسماء، والبحر، والنهر، والحقل، والجبل ٠

وحقولنا فى مصر تزرع بغيةالاتجار بمحصولاتها٠ ولذلكفقدت فى أعيننا تلك الصلة الحميمة التى كان يجب أن تربطنا بالارض ٠ وخاصة لان أهم ما يزرع فيها هوالقطن الذى نحسب قيمته بالجنيه والقرش ٠ ولو أن الارض عندناكانت تزرع للغذاء فقط وليس للثراء لكان لها مكانة أهم وأجملفى قلوبنا

واحساسنا نحو الارض ، حينتجد الذرة أو القمح أو الفول أو البرسيم ناميا عليها، هو احساسجميل ، احساسنا نحو الام ٠ فنحن نأكل تراب الارض بعد أنتحيله هذه الأم الى حبوب جميلة والى مراع للماشية ٠ ولا نحسهذا الاحساس حين نراها مزروعة بالقطن ٠٠٠ لتجارة القطن فىالبورصة

ان هذا النظر التجارى للريفالمصرى قد أحاله الى قبح ودمامة٠ اذ يعيش المالكون للأرض فىالمدن ويتجرون بالايجارات لأرضهم ولا يبالونمن يفلحونها٠ولذلك لا تكاد تجد صاحب أرض فى مصر يزرع فى أرضه شجرةأو يربى حيوانا غريبين ٠ بل هو حين يزور ضيعته لا يعرف كيفيميز بين أسماء الطيور التى تطير فى سمائها ٠ ولم يقعد قط فىشهر مارس ، شهر الغرام ، كى يراقبها ويستمع الىنداءات الغرامفى قصائد الغزل التى تؤلفها وصرخات الخوف وصيحاتالغضب بين ذكورها واناثها

وثقافتنا الريفية لا تكاد تتجاوز تلك المعارف النفعية التى يمارسها الفلاح كى ينتزع العيشمنَ الارض٠ وهو لفقره وما يمارس

من حرمان ظالم، يكاد يكره الأرض اذ هى أقرب الى أن تكون ظئره القاسية من أن تكون أمه الرحيمة. وهناك ألوف من الفلاحين لم يزرعوا قط شجيرة لجمال أزهارها أو عطر زهرتها. ولم يجمعوا قط طاقة من الورد يتشممونها ، لأن لقمة الخبز ، خبز الذرة تستحوز على كل تفكيرهم ونشاطهم . وهذا هو ما فعلنا بريفنا

لا . ليس الريف تجارة . انما هو معيشة

يجب أن نعيش فى الريف كى نسهر لياليه فى ضوء القمر ونحس السحر فى الطبيعة . أو نتأمل النجوم فى ظلام الليل ونحس الدين . أو نربى مجموعة من شجر الزهر واليها خلايا النحل ونجمع عطور الزهور ، أرواحها ، ونأكل من لبن النحل . أو نقعد فى الظهيرة الى حافة قناة جارية تحت قبة من أوراق التوت الخضراء فتجرى أفكارنا خضراء ساذجة عن الحب للفلاحين. فلا نجيز لأنفسنا تركهم يعيشون فى أكواخ من الطين مع روث الماشية، ثم اعتصار دمهم لجمع الاجارات الباهظة

وليس الريف مع ذلك هو كل ما فى الطبيعة

***

أول اهتمامى عند ما أهبط بورسعيد أو الاسكندرية أو السويس أن أزور أسواق السمك فيها. فهناك أجد اللجاة والسيبيا والريتزا والأنكليس والكابوريا ، أسماء قد تجهلها أيها القارىء مع أنك قد تأكلها. وهى جميعها أحياء تزيدنا عند التأمل احساسا بالطبيعة . وقد تحثنا على أن نزور متحف الاحياء المائية فنرى هناك عجائب من دنيا البحار. بل هى قد تثير استطلاعنا فنعود أطفالا نجمع المحار من الشواطىء. ونتساءل . وقد نجد من يجيبنا فيخبرنا بأن فى العالم آلاف الانواع من المحار وأن هناك على جبل المقطم محارا أيضا يدل على أن جبل المقطم كان بحرا

يجب أن نربى قلوبنا على حب الطبيعة وعقولنا على فهمها

وما أحسن أن نسير على شاطىء النيل من القاهرة الى أسوان فى فصل الشتاء ومعنا دفتر ندون فيه ونرسم على أوراقه ما نجـــد من مناظر وأسماء وألوان . وما أجمل أن تتألف جماعات لهذا الغرض

ان الروح التجارى الذى يسودنا يقول : هذا ضياع للوقت

ولكن الفيلسوف ، وكلنا فلاسفة على الرغم منا ، يقول : هذا حب للطبيعة ، هذا درس للأم ، هذه حياة .

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أى انسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية ، أو حتى يتسامح فى الكثير منها ، الا بمجهود شاق يضنيه ويقيم من المجتمع ، الذى يرتضى هذه القيم، خصما له . ولكن يجب أن نتنبه من وقت الى آخر الى هذه القيم الاجتماعية ، حتى لا ننساق فيها ذاهلين . وحتى لا ننسى أننا بشر قبل أن نكون مصريين أو فرنسيين أو عربا . واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا هذا الاحساس ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها . فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال . والجمال فيها أثاث فاخر أو جواهر غالية أو سيارة فارهة أو رسم على جدران أو نحو ذلك مما ننساق فيه فنتوهم أننا سادة نختار ونقرر مع أن الواقع، أننا فى الأكثر ، عبيد العرف الاجتماعى الذى يأبى علينا الاستقلال

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين على هذا العرف الاجتماعى . مثل تولستون الذى هجر المدن وعاش فى ضيعته يصنع حذاءه بيديه . أوغاندى الذى نزع عن جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا الى قنوعه من الطعام باللبن والفواكه . أو ثورو الكاتب الامريكى الذى ترك المدن وبنى لنفسه كوخا لم يكلفه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين الى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطير . وقد قال عن هجرته هذه فى الغابة وحياة الفطرة .

« انى أردت أن أسوق الحياة وأحرجها فى زاوية كى أعرف هل هى شىء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو الى نفسه ويستمع الى همساتها بعيدا عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خاليا من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كى يستكنه أسرارها ويصل الى

أصولها ويتعرف الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها .

وكلنا يحس فى أعماق القلب والمخ أننا فى حاجة الى مثل هذه التجربة . وان العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبعثر بين هموم واهتمامات صناعية أى صنعتها لنا الحضارة .

ولذلك يجب على كل من ينشد الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والاوزان البشرية ماثلة فى ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعب لها ويستمتع بها . وهو عندما يفعل ذلك ، وعندما يألف الطبيعة ، سيحس أنها ، أى الطبيعة ، تحوى ألوانا من الجمال فى الشفق عند الغروب ، وفى شموس الليل أى النجوم ، وفى بزوغ الشمس عقب سكينة الفجر ، وفى رهبة الجبل ، وبسطة الصحراء ، بل فى تنوع النبات والحيوان ونضرة الحقول ، مما يجعله يحتقر الكثير مما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونتعنى فى جمعه والتفاخر به .

وليس من الضرورى أن نسلك سلوك ثورو فى الهجرة الى مكان قصى نعيش مستوحدين سنتين أو أكثر كى نصل الى جمال الطبيعة وكى نهتدى الى مراسينا منها . فان اللجوء الى الريف من وقت لآخر ، وقضاء الايام بل أحيانا الساعات فيه ، يضىء بصيرتنا ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات والنوامى التى تنمو حولنا كما تنمو الاعشاب والطفيليات على جسم السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غاندى لم يخسر حين نزع ١٥ قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . اذ الواقع أنه كسب . أو بكلمة أصح : هو كسب من حيث القيم البشرية وخسر من حيث القيم الاجتماعية .

وأحيانا حين أقعد فى الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل شىء على الارض الى خلق سحرى ، أو حين أتأمل النجوم وأنا أعرف أن

كل نجم يضيء أكثر ممـــا تضيء شمسنا ، أو حين أتأمل الشـفق فى رائعة جماله ، أو حين أخرج فى الفجر أنتظـر بزوغ الشمس والدنيا هادئة صابحة كأنها لم تخلـق الا منذ دقائق ، أو حين أتأمل قطرات الندى وهى ترتعش فى الصباح على أوراق الشجر ، أو أتأمل آسراب الغربان وهى عائدة الى أعشاشها عند الغروب ، أو اليمام وهو يغازل على استحياء وفى طمأنينـــة ، أو حين أتأمل هذه الحرب الخفيه السرية بين النبات والحيوان فى ديسة أو خميلة على جدول ، أتعجب من انسان يرضى بقضاء دقيقة واحدة فيما يسميه قتـــل الوقت على المقهى بدلا من أن يجرى ساعيا لاهثا الى الريف كى يختبر هذه الدنيا فى أعماقها وصميمها ٠

وأتعجب من انسان أو بالاحرى انسانة ، تعتقد الجمـــال فى عقد من اللؤلؤ أو قلادة من الالماس مع أن جبلا من هذه الجواهر لا يساوى فى جماله جمال الشفق أو القمر ٠

ويفشو الجهل بالطبيعة ، أى بالدنيا ، حتى لنجـــد انســانا « يعرف » طائفـة من المعـــارف الميكروسكوبية عن الأدب أو العلم ٠ وهو يجهل هذه الدنيا العظيمـة وطنه الاول ٠ فلا يعرف روائعها من جماد ونبات وحيوان ٠

وقد جزأتنا الوطنية أجزاء على هـذا الـــكوكب ٠ حتى صرنا لا نشتاق الى رؤية جبالنا الشامخة مثل هملايا أو مدافقنا الرائعة مثل نياجرا ٠ لأننا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنـــود ونياجرا هو ملك خاص بالامريكيين أو الكنديين ٠

بل الواقع أننا لا نشتاق الى رؤيتهما لأن القيم الاجتماعية قد تغلبت علينا ٠ فنحن نهتم باقتناء البهارج «الجميلة» بدلا من الاهتمام بالاقتناء النفسى لجمال هذا الكوكب ٠ وكثيرا ما أدخـل البيوت التى تمتاز بحدائق فأجد أشجارا اسأل أصحابها عن أسمائها فلا

يعرفون .. لأنهم انما غرسوها انسياقا وراء العرف وليس تقديرا لقيمة النبات أو احساسا بأن الشجر قريبنا نحن . اذ هم يعيشون فى عزلة وجودية ولذلك لا يهتمون بالتعرف الى اسمه أو أصله .

وأحيانا أجد من الحسن أن أرد بعض الذاهلين الى التعقل وأعيد اليهم القيم البشرية بأن اسأل أحدهم : هب أنك أصبت بمرض قاتل ووثقت من الاطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد . ثم خيرت بين أن تقتنى ألف أقة من الألماس واللؤلؤ ومائة قنطار من الذهب ، أو تقضى هذا العام الباقى من عمرك على هذا الكوكب فى زيارات رائعة الى القطب الشمالى وجبال هملايا ومدافق نياجرا وغابات افريقيا، ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك فى صيد القيطس عند القطب الجنوبى وترى الفيلة فى غاباتها فى الهند . أجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية فى الهند واليابان ونروج وأستراليا، وترى الانسان البدائى والانسان المتوحش والانسان المتمدن . ومقدار التدمير الذى أحدثه هذا الاخير بكنوز كوكبنا .

لو خيرت بين هذين لاخترت بلاشك أن تقضى عامك فى زيارة الارض التى عشت فيها ماضى عمرك وأنت محبوس محجوز فى بقعة معينة تظن أنها كل شىء وتقضى سنيك فى اقتناء بهارج ليس لها غير القيمة الاجتماعية التى تعمينا عن الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد ان البشر فى المستقبل سينفضون عن عواتقهم التكاليف الباهظة العديدة التى يتحملونها الآن من الحضارة ويفكرون فى القيم البشرية . وسوف يجدون فى الآلات المنتجة ، بل فى الطاقة الذرية ، مايجعل العمل الانتاجى سهلا لايحتاج الى قضاء الوقت او الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا الكوكب وطن البشر جميعا . وعندئذ تصير الجبال والبحيرات والغابات ، بما تحفل

به من حيوان ونبات ، كنوزا يحتفظون بها ولا ينقطعون عن زيارتها

والى أن نصل الى هذه الحال يجب ان نذكر انفسنا على الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب ان نحتال بالتوفيق بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء الى الريف . ويجب ان تكون لنا هوايات ريفية طبيعية . فان صيد السمك ينزعنا احيانا يوما كاملا من الوسط الحضارى الصناعى الى وسط طبيعى . وكثير من المفكرين يحتاج الى مثل هذه الهواية التى تختمر فيها الكامنة وقت السكينة عند شاطىء النهر ثم يؤدى اختمارها الى تهيئة العقل للانتاج المثمر

أجل يجب ان نتنبه على الدوام الى القيم البشرية ، ولا ننساق فى قيم اجتماعية تستعبدنا ، ويجب ان نذكر ان الطبيعة ، اى الارض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات والحيوان ، هى كنزنا الاول الذى يجب ان نقتنيه اقتناء نفسيا وندرس جماله ونستمتع به وذلك بالاتصال الذى لاينقطع به .

الاتجاه والرؤيا

الاتجاهات والميول والغايات هى عادات كامنة « تكيف » عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتماماتنا . وكثير من النجاح يعزى الى الاتجاه والغاية لان النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام . فاذا تعينت لها غاية ، يهدف اليها النشاط ، نشطت . وكذلك يعين الاتجاه الاسلوب الذى نعيش به

اعتبر صبيا او طالبا يتجه نحو الاولوية فى المدرسة وينصبها غاية . فهو يكد ويتعب ويثابر كى يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه اسلوبة فى الدراسة بحيث انه يبتئس كثيرا اذا زحزحه آخر عن مركزه الاول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تكيف العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضرورى ان يكون هذا التلميذ اذكى من غير من المتخلفين عنه وانما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازه هذا عليهم عاطفى وليس ذكائيا . لان الاتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمى او الذهنى .

اعتبر كلبا جائعا ، وآخر شبعان . فالاول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشى وانفه للارض يبحث عن الطعام . وهو فى هذه الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع متحرك العقل بالتفتيش وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن اعتبر الآخر الشبعان فانه قاعد راكد او نائم

فالعواطف هى التى تحركنا . والاتجاهات والميول والغايات هى عواطفنا التى نتحرك بها الى الدراسة والجد والسعى والاثراء وغير ذلك . وهى كما تحرك اجسامنا تحرك ايضا أذهاننا ، فنتنبه بعد الغفلة وننشط بعد الطموح والركود ، اتجاهات . والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الفتور .

ولكل منا خارطة روحية او ذهنية أو نفسية يرتسم عليها العالم

ويحـــدد مافيه من قيم وأوزان اجتماعية او بشرية · وبهـــذا جميعـا نتجـه نحو غاية أو نرى رؤيا ونتخذ اسلوبا · فالمتفـائل يتحمس ويتحرك ويجـــد لذة العيش · والمتشائم يتبلد ويركد ويجد الحياة ماسخة لايتطعمها · ومن هنا مثلا قيمة الدين عنـــد المؤمن · فانه يجد فيه الرؤيا كما يجد الاسلوب · فيكون الدين له بمثابة الصابورة التى تتزن بها حياته ولا تتقلقل اذا صربتهـــا الزعازع والكوارث ·

والرؤيا هى ثمرة التفاؤل · لان المتشائم لايرى رؤيا · فـلا يمكن مثلا ان تكون اشتراكيـا تؤمل المســـاواة والاخـــاء بين البشر الا اذا كنت متفـــائلا · والعكس صحيح · لان الرجعى المحافظ يؤمن بأن الشر غالب على الطبيعة البشرية التي لاتتغـــير ولا يمكن معالجتها · فهو لـذلك متشائم بلا رؤيا · ولذلك يكافح الأول ويرقد الثانى ·

وقس على هذا · فان الرؤى والمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح ، وهذا الروح يحملنا على الدراسة والسعى والرقى · فنجد لذة الحياة فى الكفاح كما نرتقى به ··

الكفاح للاستعمار والاستغلال والكفاح للتعصب الدينى واللونى والكفاح للمرض والجهل والفقر والظلم ، كل هذا تتحـــرك به عواطفنـــا وتنشط · بل كدت أقول : تتذكى عقولنا · ونحن بهذه الانواع من الكفاح لانخدم أمتنا فقط بل نخـــدم انفسنا بترقية شخصيتنا ونجعل حياتنا حافلة بشئون ومشكلات اجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسع فى الحيـــاة · ونرتفـع الى مستوياتها العالية ·

وربما كان اعظم الاتجـاهات اتجاه الحب باعتبـــاره اسلوبا للعيش · لان الحب يزيد الفهم اى اننا نفهم اكثر عندما نحب ونفهم اقل او احيانا لانفهم عندما نكره · الا ترى ان الام تفهـــم

الشيء الكثير من ايماءة طفلهـــا او اى طفل آخر اذا كانت تتجه وجهة الحب ؟ . فى حين غـيرها الجامد او غير المبالى او الكاره ، لايفهم شيئا .

وهناك من يقول ان الحب يعمى . ولكن الحقيقة ان الحب يبصر ويفتق الذهن للفهـم والمعرفة . ولكن الكراهة والحقـد والبغض والنفور ، كل هذه تعمى وتغشى على عيوننا وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم .

والرجل الذى يحب الحيـاة الفنية ، ويحب الانسان والطبيعة، ويحب الثقافة ، يجد انه، بقدر السعة فى حبه ، يزداد فهمـه وتعمقه ورغبته التى لاتنقطع فى الاستزادة من الفهـــم والدرس والاستطلاع . ثم هو بهذا الحب يجد الرؤيا التى يهدف اليهـــا فى اصلاح منشود أو ظلم يرفع أواختراع يحقق . فيعيش سعيدا بهذه الافكار ويشع ضياء على كل ما يمسه كأن ذهنه مفصفر يتلألأ ويضيء على ماحوله .

ومثل هذا الرجل يدين بدين مقدس . ولا عبرة بأنه يخالف التقاليد . لان الحب هو نقطـة التبلور فى اختباراتنا وثقافتنا . والرجل الذى يختبر كثيرا ويدرس كثيرا ويتجه وجهة الحب لابد أن يصل الى هذه النقطة وأن يرى رؤيا الحب البشرى . ومن هنا كفاحه وانسانيته لانه فى جميع كفاحه الماضى انما كان يحاول ان يكون انسانا انسانيا وان يحمل البشر على ان يكونوا انسانيين .

واذا كان رجل التقاليد ينبزه بأنه ملحد أو كافر لانه يضل فى اشتباكاته الثقافية ، فان غيره من المتعمقين يعرف ايمانه ، هذا الايمان الذى وصف به فولتير فى كفاحه للمتعصبين والمستبدين ازاء رجال التقاليد من كهنة رجال الدين المسيحى فى فرنسا حين قيل عنه انه « الملحد المسيحى » . ونحن الآن نعرف ان الدين

بل القداسة كانت فى قلب فولتير الحصيب . وان الكفر كان فى قلوب أولئك الكهنة العقيمة

وخلاصة القول ان فن الحياة يقتضينا ان تكون لنا اتجاهات وميول تنتهى الى رؤيا . فنكسب منها الحب البشرى بل الدين . ونجهد ونخدم فى تفاؤل وحب ، نحب الانسان والشرف والمجد والصحة والخير ، ونحب الحيوان والنبات والجبال والانهار والرسوم الفنية والمدن التاريخية . وبذلك لا نركد بل نبقى على نشاط دائم مستطلعين مكافحين محبين للخير كارهين للشر

الحياة مغامرة

عندما نتأمل القصص السامية التى ألفها كتاب خالدون نجد أننا انما نقيس هذا السمو بشيئين : أما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش أقتحاما، وتجد مرح الحياة فى المغامرة والدخول فى الغمر العباب دون القناعة بالشواطىء والمخاضات ، وأما نجد ، بدلا من هذه الشخصية، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها الى الاعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر فى الحياة .

ومع أننا نقرأ كثيرا فأنه قلما يخطر ببال أحدنا أن يعيش فى هذه الدنيا كما لو كان بطلا فى قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد أعتنق مشكلة من مشكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهى هو وهو هى .

ولكن الواقع أن كثيرين منا ، على الرغم مما قلناه ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التى يقرأون . فالشاب الذى ينكب على قراءة قصة ما أنما يطابق بين نفسه وبين هذه الغراميات المتأججة فى القصة . والفتاة التى تدمن الذهاب الى دور السينما أنما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدرامه التى تشاهدها . وهى تعيش ، بجميع أحساساتها، فيما ترى من أقتحامات هؤلاء الفتيات ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدرامات ليست سامية . ولذلك فأن المطابقة بين قارئها أو مشاهدها وبين أبطالها أو حوادثها ليست مما يرفع أى ليست مما يساعدنا على أن نجعل حياتنا سامية نعيشها فى فن وحذق وتأنق ومجد .

ولذلك يجب أن نجعل حياتنا مغامرة . بل هى كذلك من أول ساعة نخرج فيها من الرحم الى هذا العالم . فأن الموتى الذين لا يطيقون هذا الخروج كثيرون جدا . فأذا كانت بداية حياتنا

مغامرة فيجب ألا يغيب عنا هذا الرمز ويجب أن نستبقى هذا الشعار سائر عمرنا . ويجب ألا ننسى أبدا أن الطمأنينة التى نتوخاها هى على الدوام جزئية ونسبية وظرفية . لان الطمأنينة التامة هى الموت .

ومن أجمل أو أحكم الكلمات التى خلفها لنا نيتشه قوله : كل ما لا يقتلنى يقوينى . وأيضا قوله : عش فى خطر . وذلك أن الحياة اختبارات فاذا واجهنا خطرا وخرجنا منه دون أن يقتلنا فقد كسبنا الاختبار ، وازددنا بذلك عرفانا للدنيا وحكمة فى الحياة . واذا عشنا فى خطر زال عنا الذهول الذى تتسم به العامة وصرنا فى يقظة وتنبه وذكاء وفهم فتكون الدقائق عندنا بمثابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمثابة الأيام

والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقتحامات خير من حياة طويلة هزيلة يعيشها الانسان فى ذهول ، كأنه بلا عقل أو ضمير . والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامرا لانه يسير فى أرض مجهولة لا يعرف نهايتها . وهو فى هذا الاكتشاف أو الاختراع يحس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب ، ومن منا لا يحب مغامرة كولومبية يعيش فيها شهرين أو ثلاثة أشهر فقط وهو يتطلع الى قارة جديدة ويكاد يهبط عليها بدلا من قضاء مائة سنة وهو منزو فى شارع لا تضيق حدوده الجغرافية فقط بل تضيق فيه أيضا حدوده الذهنية والنفسية .. ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون أو غاندى لاقتحامات الاول الحربية واقتحامات الثانى الروحية . ونقرأ سير القديسين والمصلحين والمخترعين فى شوق لاننا نطابق بينها وبين أنفسنا فى رغبة حارة للاقتحامات التى امتحنت حياتهم فخرجوا منها أوفر حكمة وأعمق فهما

ولنا مما قلنا عبرتان : العبرة الاولى ألا نلتزم الدعة والطمأنينة فنحجم ونتقلص ونتراجع أمام الاخطار . والعبرة الثانية الا نبالغ فى شأن الكوارث التى تصادفنا . لاننا ، مادمنا لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها اللذين أزددنا بهما فهما وحكمة

وكتب الادب العالى تكسبنا من الاختبارات ما لانحصل عليه فى مجتمعنا . والشعر العالى هو أحسن مافى الادب . لان الشاعر يعرف أنه لن يثير فى القارىء حماسة أو يلهب فيه نارا الا اذا أرتفع عن المبتذل المألوف من الاختبارات سواء فى الموضوع أو فى التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى ولو كانت هذه الاقتحامات مقصورة على التعبير واستخراج المعنى الخفى الفذ من الموضوع الواضح المبتذل

واسأل أيها القارىء ، أى أنسان متقدم فى السن . فانه لابد آسف على تلك الفرص التى عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة والطمأنينة . وهو لايأسف لان الفرصة كانت تلوح له من الفرص الكاسبة بل لانه يحس أنه كان يكون أسعد لو أنه كان قد أختبرها وعاش فيها .

وقد كان المتنبى يقول :

وكل شجاعة فى المرء تغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

الشجاعة مع الحكمة تغنى فى النهاية . العاطفة مع التعقل أى الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه .

وخوف الاقتحامات هو فى صميمه خوف الحياة أو هو أسف على الخروج من الرحم وحنين الى العودة اليه . والرجل الذى يخاف لايعيش غير تلك الحياة النباتية البقلية ، يعيش آمنا فى مكانه يخشى أن يتزحزح لئلا يسقط .

الحياة المليئة

عندما نتأمل المخ البشرى ، وهو آخر مخترعات الطبيعة وقمة التطور ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التى تربط وتستطيع أن تؤلف ملايين الافكار والمركبات الذهنية الجديدة ولكننا نقنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الافكار . حتى لنستطيع أن نقول أن عشر المخ كان يكفينا . ولو أننا عنينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربية تتجه نحو الاستنباط والاختراع والتفكير البكر ، بدلا من التسليم والجرى على الاسلوب الفاشى ، لو أننا عنينا بهذا لكان كل منا فيلسوفا أو عالما مخترعا . لان فى المادة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع لملايين المركبات الفكرية ولكننا نتركها بائرة فى جدب بلاحرث أو غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقنع بالقليل منها .

وحياتنا الفكرية هى بعض حياتنا البشرية ، وان يكن هذا البعض أفضل ما نملك . ونحن للاسف لانعيش ملء حياتنا البشرية . فقد تطول حياتنا ولكنها لايكاد يكون لها عرض أو هى تمتلىء بالسنين ولكن هذه السنين لاتمتلىء بالحياة .

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الحماسة » التى أختارها أبو تمام لمجموعة الاشعار التى جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فان البيت الخالد من أبيات الشعر هو العدسة التى تجمع المتشتت من النور فى بؤرة مركزة ، فنحس العاطفة الذهنية فى حماسة تثيرنا طربا أو أعجابا أو تفكيرا . ومن الحسن أن ننقل هذا المعنى الى الحياة . اذ يجب أن نعيش فى حماسة بلا ركود أو جمود أو تبلد . ويجب أن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب أن يكون لكل منا « بيت قصيد » أى هدف سام يتبلور فيه النشاط وتتجه اليه الحياة .

وهذه ، كلها من المعانى الفنية ، معانى الشعر ! التى يجب أن ننقلها الى الحياة .

وعند التأمل نجد أن لناثلاث حيوات نمارسها جميعا . وهى فى صميمها ثلاث ذوات .

١ ـ فأن لنا الذات الحيوانية ، ذات الرجع الانعكاسى ، والشهوات والغرائز ، للاكل والتناسل والتسلط ، التى نشاهدها فى الحيوانات الدنيا والعليا .

٢ ـ ثم هناك الذات الاجتماعية العرفية التى نحيا فيها بعادات المجتمع لا نساؤل أو معارضة

٣ ـ وأخيرا هناك ذاتنا العالية ، ذات التعقل والقدرة على أن نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من غرائزنا وننظر النظر الموضوعى .

والحياة المليئة هى حياة التعقل التى تحملنا على التخلص من الانانية الآسنة الى الغيرية الحية فنتوسع ونتعمق بما يشبه البر الذهنى . كأن حياتنا ليست مقصورة على أبعادنا الجسمية الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملأ ، هى تلك التى يقول بها أو يبصر بها فرويد ويسميها « الحاسة الاوقيانوسية » أى زيادة فى الاحساس تجعلنا نحس الاندغام الشخصى فى الكون كله بحيث نحيا فى ذراته وجزيئاته وكواكبه ونجومه ونباته وحيوانه

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى مانستطيع أن نقوله فى يقين أن الحياة المليئة تحتاج الى سخاء وتفاؤل . لان أعظم مايحدد حياتنا ويقيم حولها السدود هو البخل ، بخل الذهن وانكماشه ، وهذا البخل ينشأ من التشاؤم الذى يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فنتبلد ونجمد . ثم نعيش فى حياة ضنينة قليلة

الاختبارات . وقد ننتهى الى أسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك أنكر قيمة النسك والزهد . ولكنهما يجب أن يكونا وسيلة وليسا غاية . أى أننا ننسك ونزهد ونعتكف كى نستجم ونعود الى الاختبارات الفنية والذهنية والعاطفية . أى نعود بقوة متجددة لزيادة الاستمتاع . وكذلك يجب أن نمارس العفة حتى نسمو بالتعارف الجنسى الى مستوى من التأنق والفن يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع التعقل مكان الغريزة الغشيمة . فلا تكون العلاقة الجنسية نهبا وخطفا بل تكون تأملا وحبا ، فنتحدى الجمال فى فن وتفكير اذا تحدى غرائزنا هو فى أغراء وأغواء

والحياة المليئة تحتاج - كما يجب أن نكرر - الى وفرة الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة أن نعيش لنتعلم وندرس الكتب والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور البشرى . نهتم بها جميعا لا متفرجين فقط بل عاملين أيضا . ونعيش فيها بروح الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم وحتى يستيقظ ذكاؤنا وتستفيض شبكة المركبات الذهنية فى خلايانا المخية . واذا ذكرنا البخل فلا نذكره بشأن الحرص على المال فقط وان كان هذا أفشى مظاهره . لان أسوأ ما فى البخل نزوعنا فيه الى التبلد والاعتكاف الذهنى والعاطفى وكراهة الاختبارات . اذ هو يمنعنا من أن نحيا ملء حياتنا .

والحياة المليئة تحتاج الى التفاؤل بالدنيا والمستقبل والى السخاء والى دوام الاستطلاع والنمو .

ويجب أن يصدق هذا القول على المرأة كما يصدق على الرجل لان أتعس مايؤدى اليه حجاب المرأة ، أو العادات النفسية والذهنية المتبقية من الحجاب ، هو اعتكافها فى البيت واحجامها

عن الاختبار والسعى والاستطلاع ، والتعلم بالاختلاط بالمجتمع.

والمراة لاتقل فى الانسانية عن الرجل ويجب ان تكون لهاجميع حقوقه التى تجعله يمارس انسانيته ويربى شخصيته . وهى لن تمارس انسانيتها وتربى شخصيتها الا اذااختبرت وسعت واستطلعت وتعلمت مثله سواءونالت حقها فى كوارث الدنيا التى يتعرض لها الرجل ويتربى بها .

الهواية

فراغنا يزداد . وسيزداد فى المستقبل أكثر فأكثر . وسيكون ملؤه أو الانتفاع به من أعظم المشكلات فى التعليم والتربية ، بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هى الانتفاع بالفراغ . أى كيف نعيش ١٢ أو ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب . أما التعليم الحرفى فلن تكون له هذه الاهمية .

وفى عالمنا الحاضر طبقة من الاثرياء تعيش فى فراغ كامل أو تكاد ، لان وسائل العيش الممتاز موفرة لها . أذ أن أفرادها يستغلون أفراد الطبقات الاخرى ولكن عندما نتأمل الطرق التى تتبعها هذه الطبقة الممتازة فى قضاء فراغها أو أستغلاله نجد أنها ليست مما يغرى . فأن سباق الخيل وصيد الحمام ، والصيد بالقنص فى مطاردة الثعالب أو الارانب ، وقضاء الليل فى المقامرة أو العربدة الجنسية أو الكئولية ، كل هذا أو أشباهه لايدل على أن هذه الطبقة المترفة الممتازة قد عرفت شيئا يمكن أن يوصف بأنه « فن الفراغ » بل هو يدل على أن هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه الا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت

وتطور الآلات والزيادة فى الانتاج وتوافر الضروريات لكل أنسان ثم توافر الكماليات فى المستقبل ، ستجعلنا جميعا فى شبه تعطل . لان طرق الانتاج العلمية التى لامفر من أستخدامها فى العالم كله قريبا ستوفر للانسان حاجاته بأقل الجهد فى أقصر الوقت . ولذلك سنجدنا جميعا معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج الى مايشغلنا . فأذا لم نجد المفيد الذى يرفعنا ويرقينا عمدنا الى المضر الذى يحطنا .

بل نحن ، قبل أن نفكر فى المستقبل ، نجد أن حاضرنا يوفر لنا ، أو بالاحرى لبعضنا من أعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغا

يترجح بين أربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملأه وأن نتعلم كيف نملؤه . وعند الانجليز كلمة « هوبى » لما نسميه بالعربية « الهواية » أى العمل نهواه ونعمله للذة فقط لا نبغى منه كسبا . وعند ما نملأ فراغنا بهواية نجد تخفيفا بل معالجة للتوترات التى نستجيب بها حانقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المناوئة . وكلنا يعرف ان الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التواترات وتفرج عن العواطف المكظومة . فاذا كانت الحركة تسير فى عمل محبب فان الارادة تتجه اليه فى نشاط حتى تستحيل الى حماسة ، ويعود الاتزان النفسى الذى تزعزع من ارهاق العمل الحرفى ، يعود الينا فنستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ، وهم فى الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم وان ننفق بسخاء على ما يحتاجون اليه لشغله . وذلك لان فراغهم فى المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا .

وعلى القارىء ان يقصد الى أحدى المكتبات فى القاهرة ويطلب احدى المجلات التى تعالج الهوايات واسمها « هوبيز » وهى فى الاغلب انجليزية .. ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وأن ينتفع أو ينفع أولاده .

وأقرب الوسائل الى الانتفاع بفراغنا أن تتعدد اهتماماتنا ودراساتنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفردا فى الحياة . لا نعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش . ولا غير وسيلة واحدة للترفية والترويح . اذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجا بل خير لنا أن تتعدد الطرق .

وقلما يخلو بيت فى أوربا من غرفة يستأثر بها الزوج، لا يجوز

حتى لزوجته أن تتدخل فى ترتيبها . وفى أغلب الاحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة الى سطح البيت وهى مريحة فى فوضى أثاثها وأوراقها ، وهى ملجأ أو معتكف يلجأ اليها الزوج كى ينفس عن كظومه أو يفرج عن توتراته . وهى من المرافق الاجتماعية التى تمهد العقبات وتسوى النتوءات التى تنشأ من ارهاق العمل أو من احتكاكات العائلة .

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة . ومعظم الذين يسعدون بشيوختهم ، حين يحيلهم المجتمع الى التقاعد ، يكونون فى الاغلب قد هووا الدراسة فلازمتهم هوايتها الى الشيخوخة . وهناك هواية أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب أو ـ للمرأة ـ أنواع من التطريز والوشى والنسج .

وأذكر انى زرت ذات مرة أحد الاندية النسوية فى القاهرة فوجدت طرازا جميلا خفيفا من الكراسى عرفت ، حين سألت عن صانعه ، ان هذا الصانع موظف كتابى فى الحكومة قد هوى هذا العمل واتقنه لا يبغى منه فائدة مادية ، ولكن الفائدة المادية جاءته عفوا بحيث يستطيع الآن أن يستغنى عن وظيفته الحكومية ، ويقتصر على النجارة .

والانسان الذى تشغله هواية ما يسعد بفراغه . ويستطيع أن يتفنن فى هوايته ويتأنق فى أدائها لأنه لا يتعجل ولا يهرول اذ هو فى فراغ ينبسط أمامه . فهو يتقن ويتأنق . وحبذا المرأة تشغل فراغها بهواية مفيدة ترتقى بها اجتماعيا أو انسانيا وتجد فيها أيضا ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللائى يملأن فراغهن بالقيل والقال .

وربما لا يكون الزمن بعيدا حين تعلم المدارس وتخرج تلاميذها أو طلبتها للحياة وليس للحرفة . وحين تعنى بالفراغ والهوية أكثر مما تعنى بالعمل والكسب ويوجد فى هذه الدنيا

الواسعة لا أقل من ألف هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدى اليها . وقد تكون احدى هذه الهوايات بذرة لاختراع أو اكتشاف جديد يحتاج اليه البشر . وهل فكرت أيها القارىء وذكرت أن كثيرا من المخترعات والمكتشفات انما كان ثمرة أحدى الهوايات التى ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفى ظروفنا الاجتماعية الحاضرة يحتاج كل منا الى هواية أولا لان حياتنا حافلة بما ينغص ويبعث على توترات وكظوم مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا اتزاننا النفسى لاننا نجد فيها كل يوم انتصارا وحماسة . وثانيا لاننا نرتقى بممارسة هواية ما اذ نتعلم فنا أو أي مهارة أخرى تحرك ذكاءنا أو عضلاتنا . وثالثا تحول الهواية دون الوقوع فى العادات السيئة .

وأنت أيها القارىء عندما تجول فى شوارع القاهرة وتجد المئات من الشبان السادرين الذين يقعدون على المقاهى ويدخنون فى ذهول كأنهم نائمون ، أو يكرعون الخمر فى غير مبالاة ، أو تجد النساء فى انتقاماتهن السيكلوجية بالشجار السافر أو المستتر ، فانك لابد عند التأمل واجد أيضا أنهم يكابدون توترات وكظوما قد جهلوا طرق التخلص منها . وخير الطرق فى ظروفنا الحاضرة هو هواية لذيذة تملأ فراغهم

وفى عصرنا وظروفنا يجد الرجل الناضج الذى حصل على مقدار من الثقافة ان أعظم هواية تشغله وتملأ فراغه هى الدراسة وخاصة دراسة السياسة فى وطنه والعالم بروح البر والاهتمام لخير البشر .

وكثير مما ذكرنا فى هذا الفصل قد سبق أن أشرنا اليه فى فصول سابقة . ولكنا احتجنا الى جمع بعض الملاحظات هنا لما لها من الدلالة على قيمة الهواية .

الخلوة

يبدو الانسان كأنه حيوان اجتماعى لا يطيق العيش منفردا، وهو يعد الحبس الانفرادى أقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فأن المسجون لا يطيق انفراده بين الجدران فى الزنزانة. ولذلك يعاقب المسجونون أحيانا بحرمانهم رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون فى الزنزانة . وحضارتنا ، ولغتنا ، وديانتنا ، وأخلاقنا، تدل على أننا اجتماعيون نحب الحياة الاجتماعية .

ولكنا ، لأننا نعيش فى مجتمع، نجدنا منساقين فى تياراته ، آخذين بأساليبه ، معتمدين على قيمه وأوزانه . فتبرز فى احساسنا حقائق العيش والكسب والوجاهة والأبهة ونعمى عن حقائق أخرى أكبر قيمة وأعظم وزنا . أى أن الحقائق الاجتماعية التافهة كثيرا ما تغطى على الحقائق البشرية الجليلة .

ومن هنا قيمة الخلوة . فأن التفكير بطبيعته اجتماعى ، أي أننا نفكر بالقيم والاوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولكنا لا نحسن التفكير الا فى الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضائه . والخلوة والهواية كلتاهما ضرورية لنا كى نجد الاتزان النفسى والتأمل الفلسفى وكأننا بهما نبتعد عن المجتمع ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طرقه وأوضاعه كى نرى أنفسنا على حدة .

واذا كانت الهواية تربينا لانها تتيح لذكائنا أو عضلاتنا تدريبا وتبسط لنا آفاقا ، فأن الخلوة تتيح لنا الوقت والانفراد كى نبحث من وقت لآخر مراسينا فى المجتمع ، بل فى الكون . لأنها تنزعنا من هذا الموكب الذى نسير فيه ، أو بالاحرى ننساق فيه ، ذاهلين الى موقف اليقظة والتردد والتأمل والتساؤل : هل نحن على صواب أم خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا قد غمرت حياتنا حتى

صرنا نعد العرف قانونا أزليا والوضع القائم سنة مقدسة يجب ألا تتغير ؟

والتأمل فى الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لأننا نحاول أن نفهم الفهم الموضوعى ، فهم الضمير والتعقل ، بدلا من الفهم الانسياقى الاجتماعى . كأننا بهذه الخلوة نأخذ من المجتمع « أجازة » كى نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجرى وما يجب أن يجرى . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هى التى تحملنى مثلا على أن أحس أنى لست مصريا فقط اذ أنا قبل ذلك بشرى أنتمى الى ٢٢٠٠ مليون انسان وليس الى ٢٠ مليون مصرى فقط . وهؤلاء هم أسرتى الكبيرة التى ترتفع فوق الوطنية والمذهب والسلالة واللون . هم البشرية التى توج بها التطور بعد ألف مليون سنة من الكفاح على هذا الكوكب . وهم الذين أفكر فيهم حين أتخيل الانسان بعد مليون سنة أو أكثر .

وما أبدع غاندى حين كان يصر على أن يختص بيوم كل أسبوع يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه أحد ولو لم يختل ولم يعتكف . لأنه فى هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع أن يفكر فيها دون أن يرتطم ذهنه بسؤال أو اعتراض أو اعتبار .

وكل منا محتاج الى مثل هذا اليوم الاسبوعى . ولكن الخلوة يجب أن تكون مادية لأننا لم نرتفع الى مقام غاندى حتى نأمر فنطاع أى نطلب ألا يخاطبنا أحد فيسمع لنا . واذا نحن اختلينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن أن نختلى بلا كتاب أو جريدة . ولكن مع ورقة وقلم كى ندون مايستحق من أفكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتى » وهى صفة المتصوف الذى كان يخلو ويعتكف كى يتأمل منفردا دون أن يشغله

شـــاغل بشرى أو مادى . وفى حياتنا مشكلات كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ما هو الدين ؟ ماهو الشرف ؟ ماهو الكون ؟ ماذا بقى لى من العمر ؟ وماذا أنا فاعل به ؟ وما هو برنامجى ، برنامج الحياة ، فى الســنوات الخمس أو العشر القادمة ؟ هل درست ديانتى ؟ هل درست الفلكيات وهى أقرب العلوم الى الديانة ؟ هل حيــاتى الماضــية أو الحاضرة يصــح أن تســتمر كما هى فى المســتقبل ؟ أم هــل يجب أن أتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتــاج الى الخلوة لانها بشرية كونيــة لا تضيق ولا تحد بالاعتبــارات القومية أو الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها ولكنه لا يحسن التفــكير فيهــا الا فى خلوة . وقد كان جيته يقول : «بدون الوحدة التامة لا أستطيع أن أنتج شيئا بتاتا »

والواقع أن كل مفكر ، يرتفع الى مستوى عال من المركبــات الذهنية ، يحتاج الى خلوة من وقت لآخر . واذا نظم كل منا خلواته وجعل لها ميعادا معينا ، مرة فى الشهر أو فى الاسبوع ، ويوما كاملا و بعض يوم ، فانه يجد أن فى مراجعتــه لحيــاته الماضية ، وفى تبصره بالمستقبل ، قد اهتدى الى أساليب وأهداف ماكان ليصل اليها لو انه كان قد استسلم وانساق فى المجتمع .

وهذه الحياة الاجتماعية التى نلابســنــــا فى البيت والمقهى والنادى والمكتبة ، بل حتى فى الجريدة والكتاب ، تحــول دون التفكير المثمر وتشغلنا بتــوافه وصغائر تتبدد بها حياتنا . ولكن الخلوة تجمع تفــكيرنا فى بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضــــاء آخر قد نجد فيه ما نتغيــر به الى أحسن .

وليست الخــلوة التى نقترح بالشىء الجديد . لان الواقع أن كلا منا يخلو ويعتكف من وقت لآخر . فان احــدنا يخرج الى

مقهى ناء كى يخلو ويفكر .وعقب الغداء قد «ننسطح» فى الفراش لا لننام بل لنفكر فى موضوع معين . بل ربما قصد احدنا الى طريق متنح كى يمشى فيه منفردا للتفكير . وهلم جرا . فنحن نحس الحاجة الى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون أن نحتاج الى ارشاد .ولكن اذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك انجع لتفكيرنا وأنظم لحياتنا .

والخلوة عند الرجل العادى تعادل البرج العاجى عند الاديب او الفيلسوف . ونحن نكره الناسك الذى يجعل حياته كلها خلوة . ونكره الاديب اوالفيلسوف الذى لا يعرف من الحياة سوى أن يحتبس فى البرج العاجى . ولكننا نحب من الرجل العادى أن يختلى من وقت لآخر كى يفكر . ونحب من الاديب والفيلسوف أن يحيا كلاهما فى المجتمع ويشتبكا فى شئونه . ثم يختليا فى البرج العاجى للتأمل والتفكير .

من هو الرجل المثقف ؟

مشكلة الثقـافة هى مشكلة الحياة نفسها ، لأننا نثقف أنفسنا كى نعيش على أفضل مستوى ، وكى نسعد بالفهم على أوسـع الميادين البشرية والكونية . ونحن نتعلم فنـا أو علما كى نحترفه ونرتزق به ، ولكن التثقف أكبر من التعلم ، لان الثقافة للحياة ، وليست للحرفة .

والرجل الذى يصل الى أسمى مستويات الثقـافة ، هو الرجل الذى يحيا الحياة المثلى ، ويفهم الفهم العـام . ولذلك يجب أن تبقى الثقافة مشكلة أبدية مبسوطة للبحث والتطور الفكرى ، تتغير بتغير المجتمعات ، وترتقى بارتقاء المعارف .

ومع أنى ألفت كتـابا عن « التثقيف الذاتى » وكيف يستطيع الانسان أن يثقف نفسه ، فانى ما زلت أجول فى هذا الميدان وأحاول الاسترشاد بالشـواغل الجديدة فيه .

وقد قرأت مقـالا مسـهبا للاستاذ « دوبرى » يرى القارىء هنـا تلخيصـا له مع بعض الايضاحات . وعلى القارىء أن يقرأ هذا المقال وهو يسائل نفسه : ماذا عنده من هذه المعارف التى يقول الاسـتاذ دوبرى انهـا ضرورية للرجل المثقف ؟

اقرأه أيها القارىء وأسأل : هل أنت مثقف أو نصف مثقف أو غير مثقف ؟

وأفهم من هـذا السؤال انك تحيا على المستوى العالى للحياة ، أو انك لم تبلغ سوى نصف المسافة الى هذا المستوى ، أو انك لا تحيا تلك الحياة الانسانية التى تسمو على حياة الشهوات ، حيـاة الحيوان .

لقد وضع الاسـتاذ دوبريه ستة شروط للرجل المثقف .

أولها : أن يعـرف التركيب الطبيعى للعالم الذى نعيش فيه ،

أي يجب أن يدرس الطبيعيات والفلكيات . فيعرف المواد والعناصر التى تتألف منها الارض والشمس وسائر النجوم أى الشموس . ودراسة الطبيعيات والفلكيات تحتوى الكيمياء وسائر القوى التى كنا قبل خمسين سنة نتعلمها منفصلة مثل المغنطيسية والكهربية والضوء والحرارة ، أما الآن فهى تعلم معا على أساس التركيب الذرى ، وقد ربطت المعارف الذرية هذا الكون ، فنحن والشمس والنجوم سواء فى المواد والعناصر

نحن وحدة قد انفصلت أجزاؤها ، والسبيل الى الوقوف على هذه الوحدة هو دراسة التركيب الذرى

فما عندك من هذا أيها القارىء ... « المثقف » ؟

والشرط الثانى : أن تعرف أى حيوان أنت من بين هذه الالوف من الحيوانات ، والى أية أسرة فيها تنتمى ؟ ثم ما هى الظروف والعوامل التى جعلت الانسان انسانا ؟ وما هى الظروف والعوامل التى تعمل لبقائه أو لفنائه ؟

وبكلمة أخرى : هل درست تطور الاحياء فى الالف مليون سنة الماضية ، وعرفت كيف تكونت الاسنان وكبر المخ وظهرت الغدد الصماء ، وماذا يربطنا بالسمك ، ولماذا فقدنا أذنابنا ؟

أنه تاريخ عظيم حافل اذا درسته ازددت انسانية ، وعرفت قرابتك للزرافة وللسمك ولليمام والنعام

فماذا تعرف من هذا التاريخ ؟

والشرط الثالث للرجل المثقف هو : أن يكون قد درس الحركات الكبرى فى التاريخ البشرى . ونعنى تلك الحركات التى وجهت التاريخ البشرى وجهة أخرى ، أوزادت سرعته ، أو فتحت ميادين جديدة للفهم . وهناك حركات قد ملأت التاريخ ضجيجا واشتعالا ، ولكن سرعان ما هدأت وانطفأت كما نرى فى حركة الشقى تيمورلنك

أو الشـــقى جنكيزخان . ولن نخسر شيئا اذا جهلناها . ولكن الحركات الارتقائية البنائية ،التى استنهضت الانسان الى التقـدم والاقتحـام والتى لا يزال أثرهاباقيا ، تحتاج الى الدراسـة . ومنها اكتشاف المصريين للزراعة فهو اكتشاف أو اختراع أخرج البشر من الغابة الى حياة التمدن. ومنها اختراع الكتابة الذى يرجع الفضل فيه الى المصريين أيضـا ، ومنها ايجـاد الدين والحكومة والسنة والشهر والاسبوع،ومنهااختراع المطبعـة والآلات . ثم أخيرا اكتشاف الذرة .

وبعد سنين حين تذهب عنـادهشة الذرة ، سيقسم التاريخ البشرى الى عصرين : الاول عصرالجاهلية قبـل الذرة ، ثم عصر الفهم بعدها

والشرط الرابع للرجل المثقف: أن يعرف النظم التى يعيش بها البشر . أى نظام المجتمع ونظام الحكومة ، أى كيف يتزوج الناس وكيف يتصرفون بالثروة وكيف يوزعونها على الافراد ، وما هى الطرق التى تتبـع فى الارتزاق والتعلم وصيانة الصحة ؟ ثم كيف يحكم النـاس ، وكيف تحـل المحاكم مشاكلهم بالعـدل أو ما يفهمونه من معنى العـدل ؟ بل كيف تغيرت المجتمعات البشرية؟ وما هى الاسباب الاصيلة ، التى تجعل احدى الامم راكدة آسنة، فى حين أن الاخرى ناهضة متقدمة؟ وهذه الاسئلة تطالبنـا بدرس الاجتماع والقوانين والسيكلوجية والانثروبولوجية

والشرط الخامس : أن يعرف الرجـل المثقف أسس القيم البشرية . وهذا يجب أن يحمله على درس الاديان والفلسـفات قديمها وحديثها ، شرقيهـاوغربيها ، أى يجب أن يعـرف ديانة المصريين القـدماء وكيف تصوروا النعيم والجحيم ،ومبلغ ما فهموا من معنى العدل. وكذلك ديانات الصين والهنـد وايران

واليونان ، الى ظهـــور الاديان التوحيدية الكبرى

وقريب من الاديان فى الاتجاه هو الفلسفات التى حاولت بالتعقل ما حاولته الاديان بالوحى ، وهذه الفلسفات يجب أن نناقشها بعقل مفتوح منذ سقراط وارسطوطاليس الى جيمس ديوى وبـــول سارتر .

والشرط السادس والاخـير : هو أن يدرس الرجـــل المثقف البلاغة البشرية أي الآداب والموسيقى والفنـون الجميلة . لان الحياة البليغة تقتضى الاحساس العميق والتصور الجميل ، بحيث نستلهم من الادباء والفنانين أسلوبا يرقى بنا الى ان نحيا الحيـــاة الفنية ، فنجعل بيوتنا متاحف ، ونعامل الناس فى جمال الـكلمة والايماءة ، ونتذوق روعة الشمس فى الغروب ، وايقاع الشـــعر ورصانة النظم وفخامة البنـــاء وجمال الصورة والتمثال

وخير ما نتعرف به الى الفنون الجميلة أن نمارسها ، وأن نكون جميعا أدباء وفنانين

* *

هذه هى الشروط الستة للرجل المثقف عند الاستاذ دوبرى . فما عندك منها أيها القارىء؟ وهل أنت تحيا الحياة العميقة البليغة التى يحياها المثقفون الذين حققوا لانفسهم هذه الشروط جميعها ؟ فاذا لم تكن كذلك فماذا تنوى أن تفعل بنفسك ، بحياتك ؟ ألا تستطيع أن تشرع منـــذ اليوم فى أن تحيا الحياة العميقة البليغة ، وأن تعد البرنامج الثقافى لتحقيقها ؟

شركة

صباغى البيضا

شركة مساهمة مصرية

اكبر واحدث مصانع الصباغة وطباعة
الاقمشة فى الشرق

قطن مصرى
الوان جذابة

صناعة مصرية
صباغة ثابتة

رسومات جميلة

من التبلور إلى النجوم

عندما يأخذ الكيماوى فى تحليلاته لاحدى المواد التى يقصد الى عزلها يكون منتهى ما ينشدمن نجاح أن يبلورها. أى يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التى كانت تشوبها وهى خامة . وهذا التبلور هو محاولة للوصول الى الجوهر .

ونحن البشر فى حياتنا المدنية نولد وننشأ فى وسط المدينة أو الريف . فاذا كنا أطفالا تشابهت تقاسيمنا وملامح وجوهنا كما تشابه سلوكنا الا القليل جداممما تبرره فروق الوراثة . فنحن فى الطفولة مواد بشرية خامة لم تتبلور ولم تتجوهر .

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص أثره فى كل منا فنختلف . هذا تاجر وذاك محام . وهذا حوذى وذاك مزارع . وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر . وكل من هذه الحرف يطبع طابعه فى تقاسيم النفس والجسم . ثم تمضى السنوات ، عشرون أو ثلاثون سنة ، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها وأخلاقها التى تقتضيها . وبمرور هذه السنين نتكشف كالزهرة من التعميم الى التخصيص ومن الحال الخامة الى حال التبلور . وكأن هذه الاختبارات التى تمر بنا تصهرنا وتخرج منا الجوهر الخاص ، أجل . هو الجوهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية .

لذلك عندما نتأمل أحد الناس، الذين التزموا حرفة ما ثلاثين أو أربعين سنة ، لا نكاد نخطىء فى تعيين حرفته دون أن نحتاج الى سؤاله عنها . اذ هى تخبرنا وهو يتحدث . لان لهجة الحرفة غالبة عليه . كما نجد من ايماءاته واختيار أحاديثه وكلماته جميع الأمارات التى تعلن عن حرفته

وبخلاف هؤلاء نجد أن ذلك الشخص الذى تقلب فى حرف

كثيرة ، فهو بقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع ، مثل هذا الشخص لا يتبلور . فاذا قعدنا اليه فلن نعين حرفته . ذلك أن اهتماماته الحرفية لاتتجمع فى بؤرة بل تتشعع هنا وهناك . ولذلك أيضا لا يترك فى أذهاننا ، من حيث الحرفة ، صورة معينة .

ولسنا بهذا الذى ذكرنا نؤثر ذلك الملتزم لحرفة ما على الآخر الذى تقلب وتغير . وانما نريد أن نبين أن هناك تبلورا أو تجوهرا نكسبه من الحرفة التى نلتزمها سنين كثيرة . كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعينته ونحت عنه الزوائد .

وعندما نتقدم فى السن ، ونكون قد عنينا بتربية أنفسنا وتنمية شخصيتنا ، نجد أننا أيضا نتبلور ونتجوهر . ولكن ليس من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح أن الحرفة هى بعض المؤثرات فى الشخصية . ولكن هناك مؤثرات أخرى عديدة الى جانب الحرفة . وهى تبلورنا وتجوهرنا .

اعتبر شابا فجا خاما واعتبر أيضا رجلا فى الخمسين قد نضجت أخلاقه وأينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد أن الاول لا يزال فى التعميم . فهو « أحد الشبان » أما الثانى فقد تخصص وله دلالة ، هو رجل يدل ، وهو رمز الى أشياء عدة لها قيمتها الاجتماعية أو الثقافية .

وهذه الرمزية وهذه الدلالة هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التى قضيناها ونحن نقصد الى غاية ونتبع نهجا ونكسب الاختبارات وننمو بها . وهى جميعا تصهرنا وتحيل التبر الى الذهب الخالص .

واذا كانت غايتنا أن نصل الى الشخصية اليانعة وأن نتبلور الى الفكرة الجوهرية وأن يستحيل وجودنا فى مجتمعنا الى دلالة ،

فان التزام الحرفة الواحدة قـديكون عندئذ معرقلا أو مبطئا لانه يحد من حيويتنا واختباراتنا .أجل . يجب أن تكون الحرفـة بعض مايكون شخصيتنا وينميهاويبرز الدلالة فى حياتنا . ولـكن يجب ألا تكون هى كل شىء .

وفن الحياة يقتضينا أن نرقىالى السـنين ونسـير فى التعمير ونحن على الدوام فى ازدياد التبلور والتجـوهر ، ننفى الزيادات ونطلب الخلاصة . وفى حياتنا اشياء كثيرة من هذه الزيادات التى تنمو علينا كما تنمو صغار المحاروالودع على السرطان فى البحر فتعوق سـباحته وتتطفل علىجسمه . فهناك مثلا التزامات « اجتماعيـة » تبعثر وقتنا .وهناك « مشاغل » ماليةتستهلك طاقتنا الحيوية . بل هناكمظامع نشأت ونمت معنا بقوة التكرار وحكم العرف الاجتماعى،اذاتأملناها بعد سن الخمسين ألفيناهـا عقيمة تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من أن نعيشالمعيشة التعقلية اليقظة فيما بقى لنا من عشرين أو ثلاثين سنة .

لنكن أدباء وشعراء

ينشأ الترف للخاصة التي يتوافر لها الفراغ والمال فتستطيع ان تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ما نعده من الكماليات والزيادات . وأدوات الترف في أيامنا كثيرة وهي تختلف من الطبق الصيني الذي يومىء بزخرفته الى عصر مضى ، الى بساط ايراني تزدهي ألوانه ، الى غير ذلك مما لا يزال يقتنيه الاثرياء . بل حتى الكتب القديمة قد اصبحت نوعا من الترف يشتريه الاثرياء ويحفظونه قنية تورث كأنها بعض الجواهر

وأدوات الترف هذه تقتني للبيت . ولكن هناك ألوانا من الترف تقتنى للنفس وتمارس كالادب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح أن هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضا ضرورة الحياة لانهم ينفسون بها عن كظوم نفسية . وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفا . ولكنها كذلك عند من يهوونها اى يجعلون منها هواية ينفقون عليها من وقتهم ومالهم . يشترون الكتب الادبية كي يقرأوها ثم لا يكتفون بهذا بل يحاولون ان يكونوا ادباء وشعراء وفنانين . وهذه المحاولة ، وهي في الاغلب محاولات عديدة ، قد تنتهي الى أن تكون ممارسة مزمنة ، وهي نوع من الترف . لان الممارس لهذه الفنون لا يتخصص . اذ هو في الاغلب موظف في الحكومة او في شركة وقد يكون معلما او طبيبا او تاجرا . ولكنه ، منذ فجر شبابه ، التفت الى لون من العمق او النضج او التأنق الفكرى عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع . ثم بعد ذلك اخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة أو القصة ويقرض البيت أو البيتين . بل هو ربما يعمد الى التوسع الفني فيسأل عن الموسيقا والمسرح وينتقد ويتحرى الاصول ويحاول التعمق . وهو

هنا لايبغى كسبا من هذا المجهود اذ هو لايريد احتراف الفن لانه قانع بأن يكون هاويا لااكثر

وثق أيها القارىء ان هذا الهاوى الذى لايكسب قرشا من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب ،هذا الهاوى لايضيع وقته . لانه بهوايته هذه قد يرتفع الى اسمى ماوصل اليه الذهن .ذلك ان الشاعر يتخير من الكلمات والمعانى مايسمو على المبتذل المألوف ، والاديب يحاول ان يحيل هذه الحياة التكرارية الآلية الى قصيدة فنية ، والفيلسوف يحاول ان يبتكر القيم الجديدة ، والعالم يحاول ان يتعمق الاصول ، والهاوى الذى يغمره هذا الجو ويعيش فى هذا المناخ ينتهى الى ان يتنفس هواءه ويأخذ بمقاييسه .وعندئذ ينتقل عنده التأنق والتعمق فى التعبير الى التأنق والتعمق فى الحياة . وهو يحيا فى صميم الحياة ، فى عمق وفن وشرف . ذلك أن الاديب لا يعيش من يده الى فمه كما هو الشأن فى سائر الناس من حيث النشاط الذهنى لانه بهذا النشاط قد استطاع ان يخلق لنفسه عالما آخر يجتر فيه افكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضى ويبصر بالمستقبل ويدرس فى تعب أو لذة . ثم يقيس حاضر المجتمع وواقعه بما ينبغى ان يكون . وهو قد وجد فى الادباء والشعراء القدامى والعصريين من حدثوه احاديث الكمال والسمو والعدل والشرف والانسانية والرقى . فهو بهذا كله يجد فى نفسه كظوما تحمله على التفريج بالكتابة . وقد ينجح ويعود ، أو يبدأ يصف الدواء لمساوىء عصره . وقد لا ينجح فى الوصول الى الجماهير ولكنه مع ذلك قد دخل مدينة الفن والادب والشعر واستمتع بما فيها من كنوز . وهو لن يخرج منها طوال حياته ولن يهجرها الى غيرها .

انى أقصد ان يبدأ كل شاب حياته ، حوالى العشرين، بالتعرف

الى الآداب والفنون والعلوم . يبدأ متفرجا متنزها ، ثم يتدرج محاولا ثم ينتهى كاتبا . واقصدأيضا ان يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الادب فىالكتاب ولكن يجب ان ينتهى بأن يحاول ايجاد الفن والشعروالادب فى حياته . اجل ، هذه الحياة يجب الا نتركها تجرىفى نثر مبتذل بل نجعل منها قطيدة او على الاقل نجعل بعضالابيات العالية تتخلل هذا النثر فنعيش ولو لحظات فى حياتنانحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع منقلوبنا .

وهنا يضحك بعضنا ساخراويقول : هذا خيال . انما الحياة مجهود نجمع فيه ونكنز لليومالعصيب والازمة الطارئةوليست الحياة قضاء الوقت فى تأليفالشعر .

وجوابى انى لا انكر قيمةالمجهود نبذله كى نكفل الطعام واللباس والسكنى . ولكن هلمعنى هذا ان نقضى العمر كلهفى الاهتمام بالطعام واللباسوالسكنى ؟

ان الانسان لايمكن ان يكونانسانيا اذا اقتصرت اهتماماته وهمومه على الطعام واللباسوالسكنى . وانما هو يرتفع الى الانسانية عندما تجد الثقافةالفنية ، ثقافة العمق الفكرى ، مسكنا فى ذهنه تأوى اليه بلتمرح فيه وتمتزج بخلاياه وتعود جزءا لاينفصل من حياتهيوجهه ويكيفه ويعين لهالتصرف والسلوك ، اى يجعله ويضطرهالى أن يعيش المعيشة الفنية .

أعرف شابا لايبالى ان يتغدىبأى طعام يكسر حدة الجوع . ولايبالى أىلباس يتخذ . ومسكنهغرفة فوق سطح أحد المنازل . وهو بهذه المعيشة غير متمدنأى انه لا يتمتع بمتع الحضارة فى السكنى واللباس والطعام . وهى متع لاتنكر قيمتها . ولكن هذه القيمة صغيرة جدا الى جنبالمتع الثقافية الفنية التى يلمع

بها الذهن وتسمو بها النفس . والمقارنة بين الذهن المثقف وبين حضارة السكنى والطعام واللباس، هى أشبه المقارنات بنظافة الجسم الى نظافة اللباس . وقد كان هذا شأن هذا الشاب. فانه على الرغم من تقتيره فى هذه الاشياء او بالاحرى اهمالها ، كان لا يترك كتابا يستحق القراءة الا اقتناه ، كما كان لا يتأخر عن شراء التذاكر الغالية لحضور حفلة موسيقية . وكنت اجده زرى الهيئة نحيلا ولكن ذهنه حافل بالاثاث العصرى للثقافة ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التمييز الفنى . ولذلك كان فقيرا بوسطه غنيا بنفسه .

وقد يكون هذا المثال متطرفا أو مسرفا . ولكن الحياة الراقية تحتاج الى ان نمارس فنا جميلا ينعكس اثره فى نفوسنا وعقولنا. فيجب الا نقرأ الشعر والادب فقط بل نحاول ممارستهما. أجل . يجب ان نكون كلنا ادباء وشعراء وعلماء نكتب الادب ونقرض الشعر ونستطلع العلم . بل أكثر من هذا . ننقل الادب والشعر الى حياتنا . ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة وننزع الى البطولة فى الدفاع عن حق او الانتصار لمظلوم ونفكر فى اسمى المعانى ونعبر بأنصع الكلمات .

واولئك الذين ينشدون السعادة ولا يعرفون ما هى ، قد يجدونها فى ممارسة الآداب والفنون من حيث لا يدرون . وخاصة اذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية الى الكفاح والدعوة لعالم اسمى ، اى عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية من الحضارة الفنية فى مجتمع علمى

السعادة

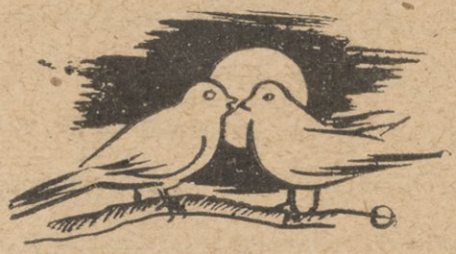

السعادة هى سلام النفس ٠واول مايجب ان نعرفه عنها انها ليست مادية ٠ ويجب ان نميزهنا بين السعادة والسرور لانهما كثيرا مايشتبهـــان ٠ ذلك ان السرور ، أو اللذة ، مادية ٠ اما السعادة ففكرية ٠ فنحن نسعد بالفكر او بالايمان او الرؤيا او الامل بحيث يحفزنا واحد مـن هذه الاشياء الاربعة الى كفـاح ٠ ولكنا نسر ونلتذ بالطعـــام اواللباس او المال او الشهـــوات الجسمية ٠

والمسرات واللذات ، لانهامادية، تتوقف على جوع يشبع أو طمع يحقق ، ثم تؤجم فى النهـــاية اى تؤدى الى السأم ٠ ولكـــن السعادة. لانهافكرية، ولانها تنهض على ايمان او كفاح او اتجـاه ، لاتؤجـم اى لاتؤدى الى سأم ٠فالقديس مثلا سعيد بأيمانه وهو يستشهد سى فرح وطـــرب ٠وسعادته هنا فكرية ٠ ولكن لذة الطعام تنتهى عند الشبع ، بل تحدث بعده صدودا .

وهناك اعتبارات أخرى تجعل السعادة دائما باقيـة والسرور وقتيا زائلا ٠ ذلك اننا حـــين نسعد بالفكرة لا يعوق ســعادتنا خد او غيرة او مقارنة مهينة لنا بغـيرنا او احساس النقص بأن هناك من يحوزون أكثر مما حزنا . فقد أسر لانى أشتريت عزبة أو اقتنيت سيارة او غير ذلك من المقتنيات المادية ٠ ولكنى فى هذا السرور احس ايضـــا انى كنت اكون اكثر سرورا لو لم ٠٠٠ فان العزبة كانت تكون أسر لى لو كانت اكبر واخصب ٠وكانت السيارة تمتعنى اكثر لو كانت من طراز آخر ٠ وهلم جـــرا ٠ ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار ولا يحب ان يستأثر بفكرته ٠ بل هو يحب العكس ٠وهو ان جميع الناس يسعدون بمثل سعادته ، كما يحدث لاحدنا حين يطرب لاستماعه الى لحن جميل أو لانه يتأمل مبنى عظيما ،فانه يحث رفيقه على أن يستمع او ينظر

وتأمل معه ويشاركه فى فرحه وطربه
والسعادة ، كالشعر عند أسحق الموصلى ، أيسر مما نظن .
فهى لاتحتاج الى التكلف اوالمشقة . بل ان السرور أدعى الى التكلف أو المشقة من السعاده وذلك لان السعادة ذاتية، فى ذوات أنفسنا ، اذ هى حال معينة اواتجاه معين . اما السرور فمادى نحتاج فيه الى الاقتناء .
وقد يكون ايضا من الحق ان نميز بين السرور والسعادة بأن نقول ان السرور اشتهائى غريزى يتعلق بما نأكل او نلبس او نسكن او نقتنى . ولكن السعادة تعقلية مرجعها الفكر اى العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج الى التربية الفنية بل الى المعارف العلمية التى تكشف عن خبايا وكنوز لاتصل الى كنهها الغرائز . فأنا حين أمارس الزهو الاجتماعى باقتناء الاثاث الفاخر او بالقيام بالضيافة المطهمة اونحو ذلك امارس نشاطا غريزيا شهوانيا له ذيول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع . اى انه سرور معلق ولا احتاج ان اتعلم كيف أمارسه ، ولكنى حين اقعد الى جدول الماء واتأمل الطبيعة وهى ترغى وتزبد فى الحقول ايام الربيع واتابع فراشة فى نشاطها الغذائى او الجنسى ، احس سعادة مطلقة . سعادة مخية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج الى تعلم .
واذا كان القارىء قد تابعنا فى منطقنا فانه يستطيع ان يعرف لماذا نكون سعدان عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أو الرسم او البناء او نستمع الى مقطوعة فنية من الغناء اوالموسيقا فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هى فوق الشهوات الغريزية . ونحن لانأجم هذه السعادة ولانملها كما انها لا تبعث فينا غيرة أو حسدا او طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف . كلاهما سعيد بفكرته ، بل ان العالم الذى يبحث موضوعا علميا سعيدا ايضا بعلمه لانه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا

كالقديس يرى رؤيا ويعتقد انها ستتحقق ويجهد وهو سعيد لتحقيقها

وليس شك ان السعادة هى سلام النفس . وهل شك احد فى ان سلام النفس هو فكرى وليس ماديا.؟

والعجب ان المتع الحقيقية فى هذا العالم ، تلك المتع التى نسعد بها، أسهل حصولا وأرخص قيمة من المتع الزائفة التى قصارى ماتؤدى اليه اننا نسر بها سروراوقتيا زائلا . وهى يجب ان تكون كذلك لان السعادة فكرية ،والفكر لايكلفنا مالا ولكن السرور مادى يكلفنا مالا وجهدا .واحياناتفوتنا فرصة السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لاننا استغرقنا حياتنا فى السرور واللذة .

ونستطيع ان نعود هنا الى المقارنة بين القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية . ذلك ان قيمة السعادة بشرية : فى الفكر والاتجاه والتأنق الفنى والفلسفى والتحقيق العلمى والرؤيا للمستقبل والمثليات والكفاح لهذه الاشياء جميعها . وجميع هذه الصفات ذاتية فى ذات انفسنا . وهى بشرية ليس لها قيمة اجتماعية . ولكن قيمة السرور اجتماعية فى الاغلب لانها تنشأ من اعتبارات المجتمع .لانى أسر مثلا باقتناء سيارة اذ أن مثل هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزا وتفوقا . أو أسر بالثراء لان المجتمع يعد الثراء تفوقا ونجاحا .

وهل نستطيع ان نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل . نستطيع ذلك بأن نجعل عقولنا فوق غرائزنا اى نجعل التعقل فوق الشهوات .وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو اسمى من همومنا الشخصية .نهتم بالناس والسياسة والاستعمار والنجوم والكواكب والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضى الاحياء ، والتطور الماضى والقادم ، والمرض والصحة

والدين والعلم والادب والفلسفة. وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقا رحبة للتفكير فلا تحدنا حدود الشهوة ولا تستعبدنا الغرائز فى اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن واقتناء مواد لاتحصى بل لاتفتأ تبعث فينا الرغبة فى الزيادة. هذه الرغبة التى تجهدنا بل احيانا نسير فيها سادرين ذاهلين وقد نموت قبل أواننا ونحن لاندرى اننا كنا مسوقين باعتبارات اجتماعية هى أبعد ماتكون من السعادة .

قلنا فى أول هذا الفصل ،اننا نسعد بالفكرة او الايمان او الرؤيا أو الامل اذا كان أحد هذه الاربعة يحفزنا الى الكفاح . وهنا نحتاج الى تفصيل موجز : ذلك ان الطاقة النفسية لاتتحمل الحبس والكتم ولذلك فان لشأن ما ، أى شأن نعتقد انه حسن ، يفتح لنا قناة تنصرف اليها الطاقة .اما اذا حبست هذه الطاقة فانها تحدث لنا فى الحالات الخفيفة« نيوروزا » اى ضيقا عاطفيا . وفى الحالات الخطيرة تحدث« سيكوزا » اى جنونا .

ولذلك كثيرا مانجد الشاب مضطربا متشائما تسوده هموم مبهمة لايعرف مأتاها فاذا انضوى الى حركة سياسية مثلا أنطلق فى تفاؤل يعمل ويسر بعمله .وهو سعيد بهذا الكفاح الذى يبعث فيه نشاطا ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من انانيته. وهو هنا يشعر بالسعادة

وعلى هذا نقول ان السعادة تحتاج الى كفاح . وسلام النفس لا يعنى ركودا وجمودا بل هو أحرى بأن يبعث نشاطا وهمة وانجازا لامل أو تحقيق الرؤيا ، بحيث يكون هذا الامل او هذه الرؤيا عند احدنا اسمى وأعم من همومنا الشخصية الذاتية لانها بسموها وعموميتها تكسبنا كرامة وتجعل لحياتنا معنى بل دلالة . وهنا السعادة .

السعادة ان نخدم فكرة وان يكون لحياتنا دلالة

تعقيب على السعادة

كلنا تقريبا ننشد السعادة ونتحدث عنها كما لو كانت من البديهيات التى لا تستحق مناقشة لاننا نعد السعادة خير ما يطلب فى هذا الوجود

ولكننا نختلف كثيرا فى معنى السعادة . وان كان المألوف أننا نعنى بهذه الكلمة الامن من الكوارث وراحة البال ، أى سلام النفس والصحة .

ولكن اذا كان هذا هو كل ما نعنى بالسعادة فان كثيرين ، بل كثيرين جدا ، يحققونها . ومع ذلك لا يجدون منا غير الاحتقار ، لاننا لا نحسدهم على حالهم هذه . اذ هى تشبه الركود والذهول بحيث تستحيل حياتهم نباتية خالية من التفزز والتنبه ، ثم ما يعقب هذا من تبلد ذهنى يشبه الجمود

والرجل الذى تنزل به الكوارث المتعددة هو - فى القيم الانسانية كالذكاء والاختبار والتعلم - خير من السعيد الذاهل الذى لم تنبهه قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : « أين موقفى من هذا العالم ؟ »

والسعداء الذاهلون كثيرون جدا ، وهم يستغرقون فى المسرات وينشدون الثراء ، ويبلغونه ويحققونه ... وقد يعيشون فى القصر الفخم ، ويأكلون أطيب الطعام ، ويتنقلون فى الفصول من المصيف الى المشتى ويجدون حاشية من الخدم ، كما أن شهواتهم تجد الاشباع الدائم ، وراحتهم رفاهية ، ورفاهيتهم ترف وبذخ .

ولكن قليلا من الحديث مع أحدهم يوضح لنا أن سعادتهم انما هى ذهول وخمود وتبلد ، وأنهم لو كانت الاقدار قد رفقت بهم لكانت قد كرثتهم بنكبة فادحة ، توقظهم من سباتهم .

وحالهم تذكرنا بالحكمة القائلة بأن أعظم ما ينكب به انسان ألا

ينكب ، ذلك أن هؤلاء السعداء الذاهلين يجدون فى الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم . فان الديدان والحشرات مثلا أسعد ، لانها أكثر ذهولا منهم ، وهى أيضا أبعد عن الكوارث .. اذ أقل ما يقال فيها انها لا تعرف الكوارث الا وقت وقوعها بها فلا نكاد نحسها لان الموت يدركها

ومثل هذه السعادة يجب ألا ننشدها .. لان السعادة العليا التى هى صفة الانسان العالى هى العقل . وكلما زاد العقل زادت السعادة ، ولكن ... زادت الكوارث ، والهموم والاهتمامات أيضا

والناس فى أغلب أحوالهم يعيشون بالتصور الحسى لانه هو التصور البدائى بل الحيوانى الذى لا يحتاج الى مجهود . ولكن الرجل الراقى يدرب نفسه على التصور العقلى . فنحن مثلا نتأثر عندما نرى طفلا قد وقع من الترام فقطعت ساقه .. ولكننا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندى ماتوا بالقحط ، لا نكاد نقف عند سطور هذا الخبر كى نتصور هول هذه الكارثة ..! فالحادث الاول سريع الى حواسنا لاننا قريبون منه رأيناه بأعيننا ، وتأثرنا لذلك سريع ، ولكن الحادث الثانى يحتاج الى مجهود عقلى حتى نتأثر به أى يجب أن نتصوره فى مخيلتنا

وعلى هذا القياس نقول ان السعادة نوعان الاول هو سعادة الحواس ، أى المسرات الحسيه المادية ، أما الثانى فهو سعادة العقل أى سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية . وهذه السعادة الفكرية لا تبالى الكوارث ، بل أن الكوارث تخصبها ، وتزيدها نضجا وايناعا ، بحيث أننا عندما نمر بنا السنين ننظر الى التقلبات والنكبات التى نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا حيوات عديدة بدلا من حياة واحدة .. وكثيرا ما أعود بالذكرى الى بعض الصدمات والكوارث والاحزان التى مرت بى فأجد أن كلا منها كان بمثابة الدرجة التى ارتقيت عليها صاعدا فى سلم الحياة لانها زادت تعمقى

للحياة وتوسعى فى الاختبارات وأكسبتنى هموما قد استحالت الى اهتمامات لا أرضى بالنزول عنها الآن .

ولذلك أستطيع أن أقول ان الحياة السعيدة هى الحياة الحيوية التى تزيد فيها درجة الحياة حدة ويقظة وتنبها أى تعقلا . والهموم والازمات والكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية .. وهى تزيدنا سعادة . أما الامن من الكوارث والمعيشة الحسية والمسرات المادية فتجعلنا نعيش فيما يقارب الذهول ، فلا نتنبه ولا نحتد أى لا نتعقل فى حدة ودقة وامعان . ولو كانت هذه السعادة هى ما يجب أن نطلب لكان أدنأ الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ كنا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة ، وبالموت منا بالنوم .

أجل . لم يكن الملك السابق فاروق سعيدا بكل خيوانيته ولذة الدنيا هى فى النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها وما زقها وأزماتها . ثم تحدى كل هذه الاشياء بالتعقل . وذلك الذى يبغى السعادة فى معناها الانسانى العالى ، يجب أن يزيد حياته حيوية لا ان ينقص هذه الحياة بالاقتصار على المعيشة الحسية ، على المسرات

هذه هى السعادة التى تستحق أن ننشدها . السعادة هى الفهم بالتعقل

I 14620820
B 12968882

DATE DUE

JAN - 1977

main

0000000019596

BJ 1588 A7 M8/c.1

ATE DUE

19596

BJ
1588
A7

MAY 1986

12 JAN 1987